بين العصر والوجدان

حوار عمرانى

المعمارى

جمال بكرى

بين العصر والوجدان
حوار عمراني

المعمـارى

جمال بكرى

بين العصر والوجدان ... حوار عمراني

جمال بكري

مركز طارق والي - العمارة والتراث

قرية الفخارين - شارع قصر الشمع - مصر القديمة - القاهرة

© جميع الحقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الاولى - ديسمبر ٢٠١١

طبع بمطابع لوتس - ٣٨ شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - Tel : 01002515157

email:walid_printing@yahoo.com

إخراج فني : محمود عبده

رقم الايداع بدار الكتب : ٢٠١١/٢٠٣٧١

لوحة الغلاف بريشة : **جمال بكرى**

صورة م. جمال بكرى على الغلاف للمصور: بارى أيفرسون. سنة ١٩٩١م

جمـال بكـرى (١٩٣١-٢٠٠٦م)

ليس مجرد معمارى متميز، ولكنه مفكر صاحب قضية.. وفنان حامل لرسالة.. شغلته هموم العمارة والعمران فى وطن يمر بأزمات ثقافية وإجتماعية واقتصادية.. حدد قضيته ورسالته الأولى فى ايقاظ العقل ..

كتب محتوى هذا المخطوط على مر حوالى ١٠ سنوات قبل وفاته، وقد كانت تلك الكتابات دائماً استجابة لأزمات آنية خارجة عنه ولكنها تؤرقه وتستنفر ابداعياته... أو خواطر تعبر عن رؤية تتدفق من وجدانه. وظلت تلك كلمات مخطوطة وحبيسة الورق لم تنشر من قبل، ولكنها كانت دائمة متحررة من هذا الحبس في ممارسة صاحبها للعمارة وفي حياته وفكره..
رحم الله جمال بكري بقدر ما قدم لأجيال عاصرته وأجيال ستأتي من بعده، بقدر إيمانه برسالته ودفاعه عن قضيته بكل آليات الابداع التي تميز بها وفيها..

واستجابة لرغبة ملحة كانت لجمال بكرى، ووفاءًا لذكراه رأينا أن ننشرهذا الكتاب كما أراده صاحبه دون تدخل أو تغيير.. عسى أن يسهم فى توصيل رسالته فى رفع الغمة وتحسين الأمة.. وإعمال العقل.

دليـلة الكـردانى (٢٠١٠م)

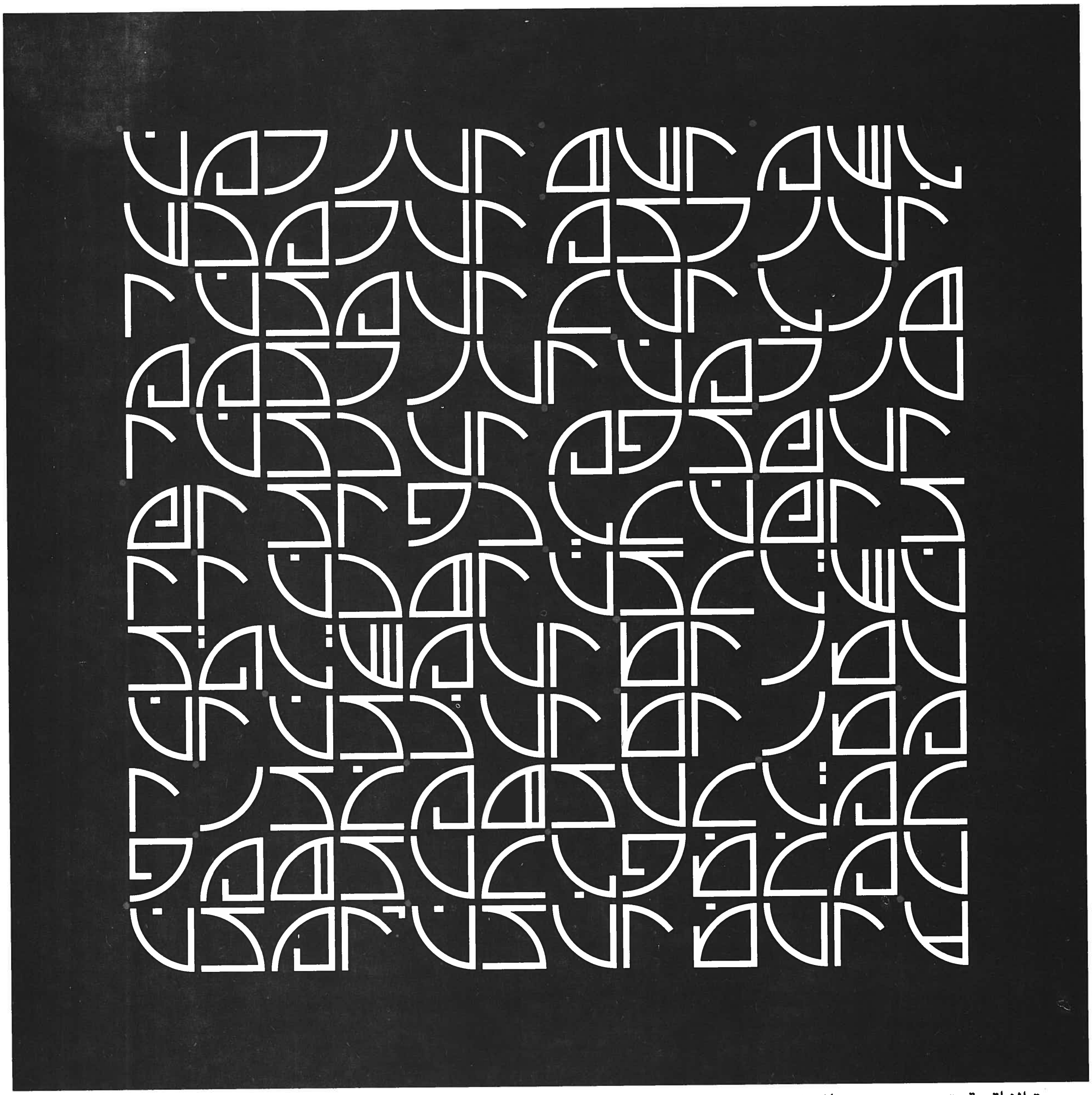

سورة الفاتحة، تصميم م.: **جمال بكري**

إهـداء

ادركت وجودى وشيطان الفن يلعب بى.
يخط حياتى...
يحد فعلى...
يهزم عقلى...
يصارع رغبتى...
يرسم قناعتى...
فاستسلمت...
فكان ماترونه فى هذا... وغيره مما لا يتسع له المجال.

الى شيطانى أهدى هذا الجهد.

انى ادرك مايختفى وراء هذا الشيطان...
ويتخفى... بكل براءة...
الأساطير...
الأعراف...
التقاليد ...
التجارب...
وكل ما يشكل المتأصل والمكتسب...
فليخجلوا من فعلتهم فى البشر...
أما أنا فلم أعد أخجل... بل أعرض...
أستعرض... أعترف... وأعفيهم ...

جمال بكرى

بعد نصف قرن من المحاولات المعمارية... أتصور أننى أصمم بتلقائية...
واعية
إن قلدت...
إن اقتبست...
فليس عن قصور...
لكن عن وعى بالألحان الشعبية... التى مرت باختيار الزمن... وأصبحت ملكاً للجميع... امتنعت عن النقد، وامتُصت فى تلقائيتنا. فلا تخرج عن نطاق أى منا.
من نهل منها... فانما ينهل من ذاته وعصبيته واستمرارية عرقه.
والأفكار التى أعرضها... ليست كلها نتاج مابعد نصف قرن، فى محاولة لتفهم الاحتياج العمرانى المعاصر فى مجتمعى... حيث كما قررت أتصرف بتلقائية واعية... غير مبال ولا وجل.
بل ان بعضها قد سبق هذا النضج وطفر منى فى لحظات... بغير ادراك منى لكنهه وقتها... كنت أحس به كنزوة غير قادر على كبحها...

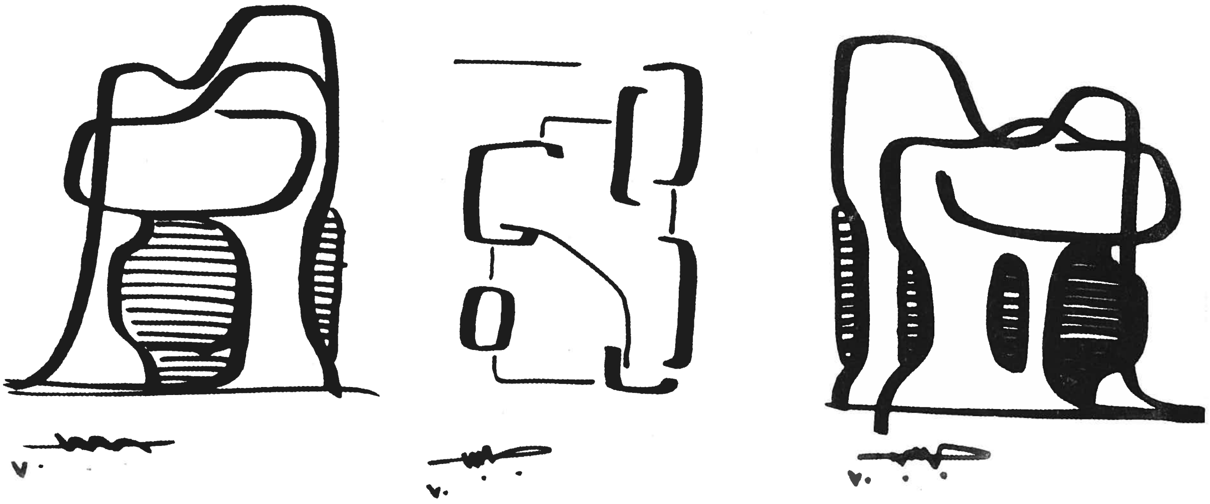

كأني ثلاثة...
اثنان يتحاوران...
وثالث متفرج...
يتصور أنه قادر على التدخل والتوجيه...
ليكتشف بعد عمر وتجربة أنه... الذات...
قُدّ من قدر... شكلته عوامل متضافره...
متشابكة... معقده.
لم يتوصل العالم بعد الى الاتفاق على كنهها...

ولا أظنه يتفق.

الإنسان ذلك الوعـــاء الحضـــارى...
النفـس البشــرية ذات الأعـــماق...
أحداث تتوالى... خبرات تترسب... ذاكرة تحفظ... وعقل يعى... استطلاع يسأل... وأسلاف تجيب... رعونة تؤكد... ونضج يشك... وشيخوخة تسلّم.
حـس يتكـون ومعـرفـة تنمـوويقيـن يـزهـو.
مقاييس تـورث... منجزات تختلف...
فيـأس يـقـتـل..
وأمـل يـولــد...
معرفة تشع.. خير ينبض..
جمال يبهر...
حيــاة تستمــر..
وقـدر يسـخـر.

لو أن بالكون ما يستوفى حاجات البشر...
لـمـا أضـافـوا اليـه شـيـئـا...

لاستكانوا استكانة الحيوان...
أوأطاعوا طاعة النبات...
أورقدوا رقـاد الجـماد...

ألـم يعصـى آدم... عـصـيان ضـرورة وقـدر...
ألم يحمّل غريزة العمران...

آدم... أبنـاؤك يفسدون فى الأرض... ألـم يروا الشـفق.

ألم يبصروا القمر على صفحة النهر..
ألـم يسمـعـوا الطـير..

إلهـــــى...

إحبـط قـواى إن لم أزد الكون تآلفـا...
إن لـم أشـدوخـيرا من العصفـور...
إن لم أنـشـئ أرق مـن العنكـبوت...
إن لـم أنـظم أشـهى من العـسـل...

فى الحق... فى الخير... فى الجمال.
تجسدت فى خيالى... جلالاً ورهبة...
استيأست قرباً...
تناهيت مطلقاً...
تلاشيت عبداً...
استسلمت يقيناً...
وتزلفت شبقاً فى وصالها.

للثعالب أوجـرة... ولطيورالسماء أوكار... أما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه.
هكذا رد المسيح على أحد أتباعه الذى ظن أنه يسعده بقوله " أنا معك حيث تمضى " فكان رد المسيح دستورا للانسانية ورفضـاً للاستكانة واستسلام رأس الإنسان ليقين يركن اليه سـاكناً.

انما يفـرّق الانسان عن الحيوان قدرته على الشك فى المسلمات والخـروج من حال الى حال، والتفاعل الدائم مع البيئة فيطورها وتطوره...
وما كان يقين الأمس يسقط اليوم كأوراق الخريف... لتتفتح بعده براعم جديدة.

ولقد مررت فى رحلة تحررى مـن قيد الطفـولة بيقينيات عدة... كانت فى البداية مهرباً رائعاً من ضياع قدرتى المحدودة، وسط ادراكى للامكانيات اللا محدودة.
لكن هذه اليقينيات بدأت تتراجع فى أسف... أول الأمر... بفعل شيطان التطور بداخلى...
ثم بخجل مع نـموقدراتى على ابتكـارالجديد..
ثم استحيت وتركتنى ساخراً حـائراً منها.. ومن نفسـى.

العقل هــــوإدراك التنـاقـض.
لكن... ليس بالعقـل وحده يحيا الإنسان.
إن كل خط أخطه... عصير نابع من القلب...
بيد تأخـذ من العقـل وأخـرى مـن الاحسـاس.

إن الفيض الوجدانى هوالحقيقة الانسانية التى تعبر عن نفسها فى نبضـاته من الهمسة الى الملحمة.
لم أطرق قضية ما، استطعـت القطع فيهـا بأمـانة عقـليـة...
ولا هـدأ بالى الى تصرف استسلمت فيـه لاحساسى الغافـل...
ولكنى أقـترض من هذا الجيب ما يعين الآخر قرب افلاسه. ولقد مررت بآفاق أدركت كل شئ فيها بعقـل صاف .
وعشت لحظات تصـورت فيها كل شيـئ باحساس مرهـف.
ولقد كانت التجـربتان مريرتان فى زيفهما وبعدهما عـن الواقع، وهما فى بساطة تامة معايشة الحياة ببعـد واحـد... وهـوافـلاس ليـس بعـده حـد.

إن مرحلة المراهقة الفكرية التى عشتها حتى المرض بحثاً عن اليقين...
أسلمتنى الى معرفة نفسى... ما هوقريب، وما هوبعيد... أكثر مما هوصواب أوهـوخطأ.

واسترحت أوأكاد الـى قبـول نفسى... راحة أسكنتنى غربة بين الأهـل والعشيرة...
يعزيهـا نبات البراعم الحبيبة التـى تحوط شجـرة يقينـى الذاتى، ترعى احـداهمـا الأخرى... رعـايـة الأم ودفء الأبنـاء.

الحق... الخير... الجمال...
القيــم الانســانية الجبــارة...
تسخّر الانسان لبناء معابدهــا...
تعبـر عـن نفسها فى مراجعة العقـل...
فى صوت الضمير... فى الهام الاحساس.

فـى كل عصــر... وبـكل حضـارة
تتمثـل فـى نظريات... وفـى قيم...
فـى قـواعـد...

يفنــى الانســان دون أن يــدركهــا...

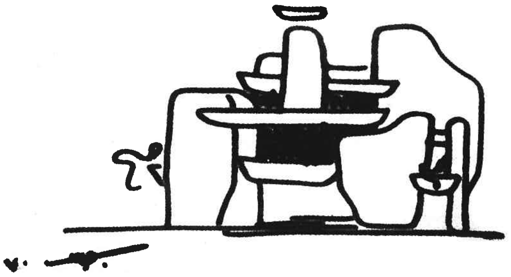

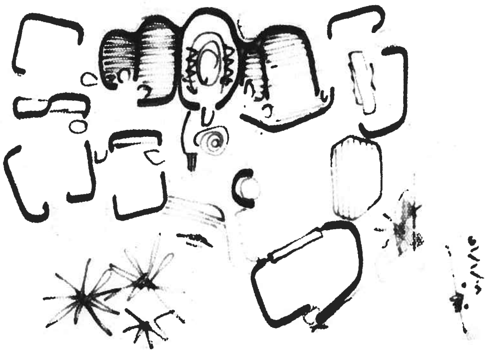

المطـرقـة والسنـدان

الحمار يعرف طريقه... والانسان يضله... هكذا كتبت... وتصورت منذ خمسة عشر عاماً... ولكنى أدركت أخيراً أن كل انسان حماره داخله يهـديه طريقه... عندما يحتار عقله.
وليس للانسان طريق واحـد..

فالعقـل ينتقـل... حسـب الاحتيـاج النفسى لمـراحل حيـاته... مـن طريق الـى طريق.
حماره يهديه... الى حيث عقله فى هذه المرحلة.

إن حمـاره... حمـار... فعـلاً!
يقذف بـه كل مرة الى مطرقة وسندان يصقلان عقله...
ويخرج بعد كل تجربة، وقد وعى أن الحمار كان عقله... وانه قد عقل... وبعد أن يسير أشواطاً فى الطريق الجديد... يهديه حماره الى طريق جديد... ومطرقة وسـندان جـديـدان...

ما قدرة الانسان على احتمال المطارق والسنـادين؟... انهـا شجاعة الذات.

لقـد كرمت الطبيعـة كثيراً من الناس...
فسلموا الى جنة الحيوان... بعيدين عن كل مطرقة وسـندان.
مِن النـاس... مَـن شُكـّلوا مـن صخر تتحطم عليه كل مطرقة ويلين معه كل سنـدان...
فلا عقل يعـى...
ولا نفـس تستجيب...
ولا قلب يدق!

رغم تتابع الصيف والشتاء داخل الانسان من احساس بالدفء والاستقرار النفسى اى الحرارة والانفعال...
ثم الى الرعشة والخوف الذى لايدفئه هروب من كهف الى كهف...
ومن فكرة الى فكرة...

تنموالبذرة رويدا رويدا، بخطوات ثابتة فى أحيان وفى عدو لاهث فى أخرى لتتفتح يوماً عن الثمرة المرجوة.
ولابد من معارضة الكوامن...
والاستسلام الوقتى... والحرب السافرة فى الأيام العصيبة.

وأول صدام حقيقى للانسان مع نفسه عندما يصل فى أول عمق بداخله الى حد انفصال خلية الأب والأم وتفجر طاقة التطور الكامنة بداخلها الى خليتى الجدود، ومنها الى عمق الجدود الأدنى...

ويزعجه تسلط هذه الكوامن وهى تعصف به فى محاولة سحبه وحمايته الى الداخل، وما هى فى الواقع الا الفرخة ترقد لحماية بيضها الى أن تفقس بفعل دفء المتوارث...
وحنين العودة اليه... رهبة من التطور ونوره الساطع..

"يكاد البرق أن يخطف الأبصار".
فيضع الانسان يده على عينيه ويكمم عقله... مثل النعامة... الى حين.
هل تستمر هذه العملية الى سابع جد...
سابع عملية تحليلية فقط؟
أم هو تسلط فكرة السبعة سموات فى عقل الانسان... وما مصدرها!

أهى هروب من أطراف الانسان الخمسة الى حاسة سادسة وسابعة... ولِمَ لا تكن أكثر!

أم حماية نفسية من الغوص داخل النفس البشرية...
خوفاً من تمزقها... بفعل معاناة حركة الداخل والخارج البندولية...
وحصر تذبذبها فى نطاق قدرة...
وعتها خبرة الانسان بتاريخه الطويل.

أم هى حدود قدرة أجيال سابقة...
تفوق عليها الانسان الحديث وأصبح قادراً على الخوض فى أعماق نفسه أكثر وأكثر.

هـل تأكيـد معظم الحضـارات لمحدودية الفكر البشرى عن ادراك النهايات الكونية هـى بفعل الكسـل العقلى والخوف النفـسى... أم هى غريزة حب البقـاء... تفعـل فعـلها حمـاية للفكرة الانسانية من الضياع فى غمار حرب الانسـان مع نفسه؟

هوتوازن آخر تحده قدرة الانسان الفرد على معرفة قدرته الحقيقية...
والمجتمع لتقدير حدوده...
والعصر فى المحافظة على بناءه... لتسليم الراية الـى عصر آخر... وحضارة أخـرى، ومكان زمان آخرين

فللعـمر حـدود...
مـن ربيـع...
الى خـريـف... الى... ربيـع آخر...

محاولة فى فهم نفسي

أما قد مشيت أغوارا كثيره فى محاولة فهم نفسى... فهذه حقيقة ساعدنى كل ما حولى، ومن حولى فى هذا المسار.

ولكن الذى يشقينى ويضنينى هوذلك الشك الدائم الذى يقتل كل يقين أركن إليه، وكل منطق استعين به...
لقد نما عقلى عن نفسى...
وهزمت موضوعيتى... ذاتيتى... فى معارك كثيرة...
لكن الحوار ما زال دائرا بينهما، يمنع نفسى أن تهدأ... وعقلى أن يوقن.
وما زلت رغم عنى انساناً...
زاهداً حيوانيته...
راهباً معبده.

الكون كله يلعب محاورة الخواء والامتلاء!
الذرة مع نفسها...
بين البروتون والالكترون... أوهكذا نتصور...
بينا يقف النيوترون متفرجاً؟!

والحركة دائرة بين الخواء والامتلاء بفعل الديناميكية السارية بين الشحنات الى نصطلح بتسميتها سالبة وموجبة...
وما هى إلا وجه آخر لتصورنا للخواء والامتلاء.
السحابة تلعبها فى السماء...
الموجة فى البحر...
القطرة فى الزهرة...
والهواء فى الفضاء...
والذكر والأنثى... والعواطف والعواصف.

العقل البشرى يحاكى الطبيعة فى هذه اللعبة الساحرة.
بين اللحن والسكتة... فى الموسيقى.
الحلووالمر... فى الطعام.

العطـر والنسيم... فـى الحـدائـق.
الخشن والأملـس... فـى النـحـت.
الكتلـة والفـراغ... فـى المعمــار.

تجمعها في النهاية الديناميكيـــــــــة الـدوارة...

هل فعلاً كل شئ فى الكون يصارع نقيضه؟
أم هو اسقاط محض... تبسيط مخل؟

هل هى محاولة إنسانية عقلية مثل تحليل القوى فى الهندسة المستوية. الى محور س ومحور ص، ثم فى الفراغية الى س، ص، ع... ثم أخيراً إلى س، ص، ع، ن عندما تصورنا الكون ذوأربع أبعاد فقط، وما هى إلا محدودية مرحلية لتصورنا العقلى، كالحجرة ذات الأربعة أبعاد...

حقاً يسير الانسان على إثنين... وله يدان... وعينان وأذنان، وفتحتان فى منخاره، وفكّان فى فمه، ونعم ولا فى عقله...

ولكنها ليست الإمكانية الوحيدة فى الكون... فان التنوع والكثرة والتفرد لاحصر له فى الطبيعة... مهما حاول الانسان يائساً أن يجرد المحسوسات فى قانون واحد يجّب التنوع ويلغيه.

لست أدرى ما يدعوالإنسان الى حصر استمتاعه بلحن واحد... وزهرة واحدة... وحل واحد ونظرية واحدة... وقانون واحد إلا أن تكون رهبته من غربة تفرده... ورغبته فى الذوبان والدوران مع السديم الكونى.

أرجوألا تكون لعبة الإستقطاب العقلى الى النقيض...
محاولة أخرى يلعبها الإنسان مع نفسه وبيئته... فتارة ينشئ الملاعب الرياضية... وأحياناً الملاعب السياسية... وأخرى العلمية والفنية وأخطرها الدينية.
فيتصارع فريقان لتعـزف كلها فى النهاية... نشيد الخواء والإمتلاء... أويكون هذا تبسيط عقلى آخر... والله أعـلم.

إن مصادر العقل هى الحواس الخمسة التى تمده بالخبرات... تترسب مع الزمن وتتراكم... وتنضم الى رصيد الخبرة الكونية، تنتقل الى الأجيال القادمة فى صورة ما نسميه الحاسة السادسة، أواللاشعور أوالنفس البشرية، أو... أو... حيرة الانسان مع الغيبيات، وقدراته عندما يُرهبه ادراكه لعدم وعيه بكثير منها.
وليست هذه الحواس بذات بعدين فقـط... فالعين لا تـرى النـور والظلام فقـط، ولكنها ترى
الأصفر والأحمر... والأزرق، و... الخ.
والأذن تسمع وتفـرق بيـن شتى الأصوات والأنغـام... وليس اللحـن والسكتة فقـط... وللنفس البشـرية درجـات شـاسعـة بين الحب والكره... والسعـادة والشـقاء...
وللعقـل حـدود برحة بين الصفر واللانهايـة...

بل أن الانسان ليس له تصور مطلق لهذه النهايات التى يدّعيها، ويسكنها مدركات عقله... قبل أن يودعها أحلام كهفه المزعجة.

تلك المدركات التى تسكن العقل فنظنها يقينيات... الى أن توقظها هزات تبلغ من النفس البشرية أغوارا... وتصل بها فى بعض الأحيان الى لمحات العبقرية... وتؤدى بها فى أحيان أخرى الى ما يطلقون عليه الجنون... لبعدها عن قياس المجتمع...
ومن يدرى؟!

" لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خير منهم ".
إن تنوير تلك الخلايا من العقل... التى استقرت منذ آماد بعيدة فى ظلمات المدركات والمسلّمات... التى أصبحت من صميم الإنسان ومجتمعه وسلامته النفسية... تتطلب من الانسان شجاعة فى نقد الذات تصل فى بعض الناس الى هزات الصرع والموت... فليس أشق على النفس من ادراك نوازعها...
"النفس أمارة بالسوء "...

وقد شببنا على احترام أنفسنا... وظننّاها الى وقت قريب قد هُديت الى مرافئ خلقية سوية... ودرجات انسانية سامية، لنكتشف فى بعض المواجهات... هول الامكانيات التى بداخلنا... والتى لومُنعت من العطاء... لهدمت المعبد... قبل الماخورة.

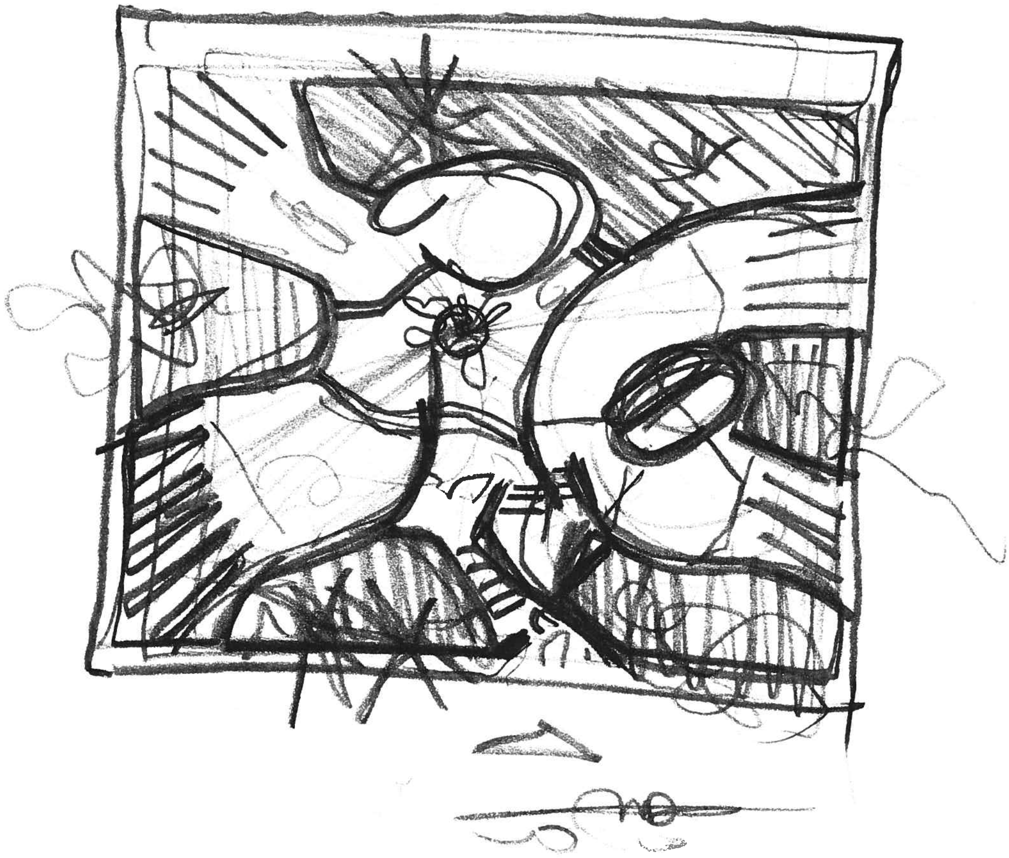

التوازن السادى فى الكون بين الأخذ والعطاء...
سواء فسيولوجيا مثل الأكل والاخراج.
أوالتبادل المزدوج فى التفاعلات الكيماوية...
أوالشحنات والمجالات التى تتوازن فى تنوعات... تجد تعبيرها فى هذا الاختلاف اللا محدود فى الأشكال.

إن كل شيئ هوفى الحقيقة توازن عوامل كثيرة... استقرت عند هذا الشكل.

المجموعة الشمسية... توازن أيكولوجى كبير...
الكون كله توازن أكبر... والذرة أصغر توازن نعرفه... الى أن نكتشف...
أويسقط فكرنا فى حدود متناهية فى الصغر والكبر... تتوازى مع قدرتنا.
وأذا انتقلنا الى الانسان... وهوبالضرورة محور اهتمامنا الأكبر... كان الكلام أكبر حوار للأخذ والعطاء عند الانسان الحق. وكم يكون الصمت أبلغ كلام...
تماماً كما يكون الفراغ أكثر درامية من الكتلة فى كثير من الأحيان.

إن أول فراغ أحسه الانسان هورحم أمه... وأول اجابية له، هومحاولة الخروج منه. وهوالتجسد الأمثل لمحنة الإنسان الأولى...

وعلة رغبته الدائمة للخروج من حـدوده النفسية والفكرية... وكل المنشآت النفسية السلبية، التـى تشابه سلبية فـراغ رحم الأم.
وكما يعبر الانسان عن وجوده الحيوانيى الأول بخروجه من فـراغ الرحـم... تكون انسانيته... وايجابيته الانسانية في خروجه الدائم من الأرحام النفسية والعقائدية الأخرى... سواء خروجه من الجنة... التى كان حبيسها... أوفكره... أوعقيدته... أومذهبه.

قـديمـاً قـالوا إن ولادة كل فليسوف تكمن فـى كرهه لفيلسوف... سابق... وغالباً ما يكون معلمه.

وولادة إنسـانية الإنسـان تبـدأ... فى نقـده لمعلمه الأكبر... التراكمات الكونية والحضارية المتوارثة بداخله فى هيئة جهاز الدفاع النفسى...
والأنا العليا التى تحمى طفولته الفكرية...

وتحمى ذاتيه الأنسانية من الضياع فى زحمة عقائد السوق... الى أن تتـأهل نفسه للمجابهة الإنسانية... ليجد معنى حياته فى صورة عطاؤه الإنسانى... فـى ذرية... أومذهـب يدعـوا له... أوتمثال ينحته... الى أن يجد معبده ويتصوف فيه. إنها العودة النفسية لرحم من صنع ذاته... رحم عقلى.

إن العطاء هـوتفوق الإنسان علـى الكون...
إن كل مـا فـى الكون توازن بين الأخذ والعطاء إلا العقل الإنسانى... الذى يأخذ... يأخذ... الى أن تبدأ فيه حمم العطاء...
وهوفـى هذه الحالة كالنهر الفياض، أوالبركان الثائر... لا بد أن يعطى ويجرف فى طريقه كل ما يمنعه... إن القوة التحطيمية فى الانسان...

تنبع من قوى المنع فى المؤسسات الحضارية، سواء فى ذاته أوفى المجتمع، يجابهها الإنسـان إن منـع مـن العطـاء... إمـا بتحطيمهـا إن استطـاع... أوتحطيم ذاتـه والإنسحاب الى الداخل إذا يأس.
الإنسـان وعـاء ذومخـرجـين... كـرمتـه الطبيعـة بغـريزة العطـاء.
إن هيأت له بيئته ابراز إنسانيته...
أعطى مـن المخرج الإنسانى وحصل على المقابل... جنة السعـادة النفسية.
وإلا فـالقلـق والتـوتـر... والخطيئة والثـأر.

تبلغ محاولة الإنسان فى فهم ما حوله أقصى مداها من التعقيد...
عندما يتصدى لتفسير تصرفاته... فهناك الموضوع بذاتيته وموضوعيته...
بفكره وتلقائيته.

وهناك الذات... بذاتيتها وموضوعيتها... بشعورها ولاشعورها... وهناك العلاقة بوجهتى نظرها والإحساس بها... وهناك فى النهاية التبادل والتوافق بين هذه العوامل... التى تؤدى فى النهاية الى عديد من الإحتمالات... لها نفس القوة من امكانية حقيقتها...
إذا أمكن أن تنظر الذات فعلا بموضوعية!

هنا يرى العقل حقيقة أن التفسير وعكسه... يقفان على نفس الدرجة أمامه، ولا يقدر على القطع بدرجة تسمح له بإدراك ذاتية الفكرة من موضوعيتها... ذلك إن وَعَى كل هذه الإمكانيات؟!

فما بالك والتلقائية تلعب دورا فى العلاقات البشرية أعمق مما نشعر به؟!
إن الرغبة دائماً تتخفى برداء الفكرة...
تحمى نفسها من عقول الفضوليين...
وتحتمى قبل ذلك وأهم... من تأنيب العقل والضمير.

ولو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفذ البحر "
ليس هذا إسرافاً فى الخيال، ولكنه واقع الإمكانيات اللا محدودة فى الكون، التى لا تنضب.
على الإنسان أن يتخلى عن كسله العقلى... ويخرج الى ما هوأهل له...
بإنطلاقة من قانون أدنى جهد الذى يحكم حركة الكون.

على الإنسان أن يرض بقدَرُه الذى أهّله ليختار قانونه بنفسه.
فإن اختار إستخدام عقله... سخّر ما حوله لتحقيق مثالياته، وأقام الحضارات وحقق المنجزات... فذلك قدر العقل ومعاناة الإنسان الحق.
وإن اختار استخدام الجسد... يصارع به الإنس والجن... فنسج حوله شرنقة من المعتقدات الضحلة والمشاغل اليومية، والمشاكل الذاتية... فقد هرب من حرية العقل، وقدَرُه الإنسانى... وأعاد نفسه الى الجنة الحيوانية... ولكن هيهات... لقد فلت الزمام، وانطلق صاروخ الإنسانية بعيداً عن دفء الإيمان الحيوانى، وأضحى الإنسان حبيس حريته... ليس أمامه إلا أن يطلق قيود نفسه التى تكّبل عقله... وقيود عقله التى تكّبل نفسه... ويعيش إنسانيته.
إن المعاناة تفقد كثيراً من آلامها إذا وعى الإنسان غرضها... إذا تكشف له مسارها الإنسانى، فاستسلم لها... واستعذب إستنفاذ نفسه... فى هدفها.
إن التاريخ الإنسانى... حوار دائم بين العقل والجسد...
بين كسل العقل، وكسل الجسد...

لقد أقام الإنسان حضارات بناها العقل... فوضعوا حجراً على حجر حتى بنوا أهرامات، وشيدوا سور الصين العظيم... وقد سخّرهم لذلك أناس فقدوا نعمة كسل العقل... فعاشوا معاناته.
وقد سخّر انسان العصر الحديث الأجهزة لتريح جسده... ثم لتريح عقله... وكلما بذل جهداً عقلياً... استمتع جسده بالكسل، فأسكنه ثانية نطاق جاذبية أدنى جهد... والعكس بالعكس.

وكما يحكمنا قانون بقاء المادة... وقانون بقاء الطاقة... فنحن نعيش قانون بقاء الجهد... يوازن بين جهد العقل وجهد البدن.

إن التوازن الساحر بين ثنائيات الكون... يفعل فعله للحفاظ على تفرد الأشياء. وكأن القوة العظمى فى الكون... فعلها الأساسى إعادة التوازن حين يختل.
" والسماء رفعها... ووضع الميزان ".

إن الحضارات البشرية فى انبثاقها وضمورها... نستطيع تفهّمه من خلال غريزة التوازن التى أودعها الكون... الانسان.

فاذا زادت قدرة الإنسان الإبداعية... بفعل الإحتكاك المستمر مع البيئة وتحدياتها، إلى القدر الذى يبشر بسيطرة العقل على الجسد... وتحول الإنسان عن إنسانيته...
وهى توازن العقل والغريزة... فعلت قوة التوازن فعلتها...
فأعادت العقل الى عقاله... فتغلبت المحاكاة على الإبداع، وتمسك الناس بالشعائر... وفقدوا قدرة تفهّم الأهداف والقيم... واندثرت الحضارة.. وابتذل الناس، وترهل العقل.

وكادت الإنسانية أن تستريح إلى سابق حيوانيتها... والحيوانية الى سالف نماطها فى سلسلة التدرج الكونى... فتخمد حمم التطور... ويسود السكون ويعود كل شيئ الى بدايته...
وهوحلم الإنسان... ورد الفعل النفسى ضد التطور والتغير... ومعاناة الملاحقة اللاهثة.
ولكن... هل تتفتح الزهرة قبل أوانها؟
هل تذبل... قبل الخريف...
إنها فى نهاية دورتها تنتج الحبة التى تبدأ منها الدورة الجديدة مع الربيع القادم.
" وتلك الأيام نداولها بين الناس ".

المستقبلية مجداف... والإنسحاب الى الداخل... المجداف الآخر، بتبادلهما تسير حياة الانسان الى هدف منشود، يجرفه بحر الحياة... ويحده شاطئى زمانه ومكانه... ويحاور فى مسيرته المراكب الأخرى ويتفادى دعائم المنشآت الحضارية، والمخلفات التاريخية... وهوفى كل هذا يعانى.
لكن معاناته الكبرى يحس بها فى مجدافيه... المستقبلية... والإنسحاب الى الداخل... فإن أوقف مجداف... دار فى حلقة مفرغة... وإن غلّب مجداف حرف اتجاهه عن هدفه.
وهوعلى كل حال قد ركب المركب، وبه ساعد أقوى من ساعد... وقد صُنعت له المركب بمجداف أثقل من مجداف... ولكنه قد زوّد بميزان عقلى... يصحح له مساره بين الآن والآخر... نحوالهدف بينما نُسج هومن كيان يحرف له مساره من آن لآن... نحوالرغبة. وهوفى هذا وذاك بين غالب ومغلوب، وسعيد وشقى، وناجح وفاشل.

المستقبلية غريزة غريبة فى الانسان... تدفعه للتضحية بيومه فى سبيل غده، سواء كان غدا ملموسا فى ولد أومنجز مادى... أوكان قيمة معنوية وهدفا انسانيا ساميا... من وجهة نظره. بل إن الإنسان مجبول للتجاوب مع تيار التاريخ... بهوس فى بعض الأحيان...وفى بعض الناس... حيث تفقد فيه

التضحية معاناتها، وتحل محلها متعة الفناء فى سبيل الهدف!
بل هو الفناء فى الهدف ذاته... جهاداً وجدانيا تنصهر فيه الفكرة والرغبة، ويصبح فيه الانسان والمجتمع والدولة... بل المجتمع الانسانى كله... لبنة فى بناء التاريخ، ووسيلة من وسائله ومراحله... لا غاية ولا نهاية...
" كل خلق لما هو ميسّر له "

أما الانسحاب الى الداخل فهو دفاعاً عن كيان الانسان وحماية لبقائه فرداً وجنساً، وعنصراً فريداً... وعى نفسه وقد حمل عقله فى أعلاه... والذى بدوره وعى قدرته، وقد شعر برسالة يحملها... ومصير يسعى اليه... وحكم من التاريخ ينتظره فى نهاية المشوار.

لكن هاتان القدرتان والخاصيتان البارزتان فى الانسان... المستقبلية والانسحاب الى الداخل... لا تتخاصمان على طول الطريق... وهما إن بدأتا بالعراك فى بداية مراهقته الفكرية... وهدأتا حيناً بمعاناة... قد يتبادلان الود فى أواسط العمر... ليتزاوجا وينجبا... الفكرة المستقبلية الجديدة، والتى تدور دورتها لتصبح يوماً ما... المقوم الداخلى فى الانسان الجديد، الذى ينسحب اليه هرباً من الفكرة الأحدث... الى أن يأذن القدر لهذا الجنس القلق أن يهدأ...

أويستبدله بشكل آخر وحلقة أعمق من حلقات التاريخ.

لِما أراني ألـف وأدور محاولا الخروج من فكرة الشيئ والنقيض المسيطرة على فكرى وعقلـى؟... وأسرح فى إمكانيات وتغييرات، ومحاورات ومدلولات، لأجدنى فى نهاية كل محاولة، قد ألبست فكرتى رداءا جديدا... لا غير.
أوربما كانت هـى حقيقة هـذا الكون ومحرّكه الفعلى نحـو الـدوامـة الناجمة عـن هذا الإزدواج... وما محاولاتى هذه إلا تطبيقات تثبـت حقيقة الفكرة... إن كان هناك حقيقة؟
إن كنت مثـلى تـوّاق الى فكرة أعمـق... فالى الشقـاء فى أجيال أخرى... يصحبك الصبر.

ليتني أستطيع السيطرة على نفسى...
على أحاسيسى وعقلى وفكرى...
ليتنى كنت قريباً الى العرف السائد فى المجتمع...
ليتنى لم أولد طفلاً شارداً منذ وعيت... بل قبل أن أعى...
ليتنى لم أكن أشعر من البداية بغربة واختلاف... عما يقال... ويُفعل...
ليتنى لم أودع فطرة منغمسة الى حد التلاشى فيما أفعل...
ليتنى لا أستغرق فى جَدّى ولهوى بكل جوارحى لأتّحد كلية فى صدق اللحظة ولا أشعر بما يدور حولى.

ليتنى لم أركب سفينة العصر وأبحر بها عن جزيرتى التى هجرت الحضارة وهجرت المدنية...
ليتنى... وياليتنى...
لكن التجربة علمتنى ألا فكاك لى من قدرى...
لا أكافأ على ميزة...
ولا أعاتب على نقص...
فهوالموروث... والتلقائية... والتفاعل المضنى بينهما.
ولطالما تمنيت أن أصبح أكثر تواؤما مع مجتمعى... ولكن كيف؟

إنى أصرخ بأعلى مـا أستطـيع ...
وأنتج بأوفـر مـما أستطـيـع ...
وأعتقد إنى أصل برسالتى الى وعى وشعور الفئة المؤثرة..
ولكنى لا أتمكن من الوصول الى شجاعتهم.
أم أنها إرادة الإنهزام أمام الحضارة المعاصرة... أهى ماشوسية تحكمنا؟!
فلا نجـد الحـل إلا فـى المغلوط... ولا ينفذ إلى واقعنا إلا القبيح... لننزل عليه بالنقد و
التجريح!... أم مـاذا؟!

أحس كثيراً أننى بكل طاقتى... زائدة دودية فى المجتمع... لا أفيد ولا أستفيد.
يتهموننى مرة بالجنون، ومرات بالتطور الزائد عن العصر... وأنا أعلم أنى لم أصل بعد الى التوازى مع امكانيات العصر أوحتى الحاجات الـمُلحّة لمجتمعى، الذى يتطـلب وفـرة وإيقاعاً لاهثاً.
ونحن نركب الزواحف... ونمشى عكس دوران الأرض.
رأيت كثيراً من مفكرينا استدار... أوهجر... أويأس... ليضيفوا الى رغبتنا أحزانا أخرى.

أعرف أننا لن نركب موجة الضوء لنتقدم...
لكننا على الأدنى محتاجون أن نرتاد موجة الصدق، واحتمال ألم الحقيقة ومعاناة العبور.
ولست أدرى إن كان الإنتصار فى النهاية للحق والصدق...
كما نرى فى الأفلام...

لماذا ما نحن فيه...؟
هل إنحرفت الفطرة...
هل تنام دهورا...
هل تباطأت نبضات الكون عن إيقاع العصر...
هل سبق وعى الإنسان رتابة الكون...
هل ربط الإنسان خياله بالسديم...
يتصور تارة صراعه مع القدر...
وتارة مع الزمن...
تارة مع مبدأ الكسل الكونى...

وإلا فقـدت مقومـات وظيفتها الإبداعية.
فهـى مطالبـة أن تـزود مريديها بالمهارات والمعلومات.
والأصل أن تبدأ هذه المدارس بتعليم المهارات... ثم تزداد جرعة المعلومات... الى أن تتفتح أمام الدارسين طرق المعـرفة لمن يريد مواصلة قافلة الحضارة.

ومع إيقاع العصر... تسارعت وسائط المهارات، وتبعثرت دروب المعلومات...
ولم يعد تعبير شيخ الطريقة التى كانت أسس التعليم فى مجتمعنا قادرة على مجابهة العلم، بل أصبحت من أكبر المعوقات.

ولكن أغلبنا يعيش نفسياً فى احتياج الى مشايخ الطرق فى كل المجالات...
ولنا أن نبصر استسلام الناس عندنا لملتزمى الطرق العلمية والوجدانية...
واستدارتهم لأى نقد أوإنحراف عن المسلمات.

وها هم مفكرينا يفصلون تماماً بين وجوب إلتزامنا بقيمنا... وشرط أخذنا بالطريقة العلمية فى التفكير... رغماً عما يؤكده العلم... أن العقل تابع للوجدان.
فالإنسان قوام واحد والمجتمع كيان واحد، ولا يمكن أن تسير النفس فى عكس الإتجاهين آنيا.

حقيقة إن الانسان لا تهدأ نفسه أويمارس إنسانيته إلا انطلاقا من مُسلمات..

ولا يتقدم إلا متفائلا بالغد ومؤمنا بانتصار الصدق...
إن أكثرنا جموداً واستبسالاً فى المحافظة...
لا يستطيع إنكار ما مر به هونفسه خلال مراحل نموه من الطفولة الى الإكتمال...
من تصورات وخيالات وتأكيدات...
سقط فى معظمها خريفاً بعد خريف...
فهل نحن فـى غفلة بعد ذلك عن وعائنا النفسى وقدرته على التلوّن والتغير مع اختلاف الدرجة والسرعة!
أم أن النسيان خادم النفس الوفى يزين له غير ذلك؟

يموج بحرنا بمختلف التيارات والقيم والعادات والمدارس... والمذاهب...
ونستميت فى نقد ما نحن فيه... فى كل وسائل إعلامنا... بل فى مجالسنا الخاصة.
ونقارن أنفسنا بالعالم المتقدم... راغبين حقيقة فى تخطى عقباتنا...
ونحن دون استثناء...
نحمل فى صميمنا رغبة أكيدة..
وطبع يكاد أن يصبح غريزة فى الإستسلام لأول شيخ طريقة ينقلنا من يقين الى يقين...
ومن سلبية الى سلبية...
ومن انتحار فى أفكار السلف... الى انتحار فى أفكار الخلف.
وهذا فى رأينا منتهى الإبداع... نملأ به ورقاً وموجات وأبواق... وأجيال حائرة.

العوامل التى تؤثر فى تشكيله متعددة ومتشعبة...
بصورة يشق عليه أن يحددها أويصرح بها... حتى لنفسه.
ظروف عصره... مكان نشأته... محددات ورواس ثابتة فى نفسه.
لا يدرك كم هومكبل... لا تتفتح حقائقها بوعيه، لعمق تواجدها فى كيانه.
التطورات... الطفرات... التى يدور فى أفلاكها... تنحت قدره.
فى عمر الذاتية... يتصور نفسه المصدر المسيطر... رغم تشبسه بالمذاهب والاعلام... يتطفل عليها... إلا أن حمى اليقين بداخله تزين له صدق المذهب وخلود الأعلام.

ولوقُدّر للإنسان ممارسة طويلة فى مجال عطائه... لأدرك ضيق ملعبه عن حدود الزمان والمكان...
وحياته فى الواقع محاولة شجاعة دائمة لإختراق الحدود... ليلعب فى فراغ أبرح. وهومكبل أيضا بحدود أخرى يختارها وتختاره... فى زمن تسارع إختراق الحدود فيه... بصورة تهدد القدرة البشرية على التوازن والإستقرار، والإستكانة الى قيم مرجعية لأفعاله وتصوراته ومنجزاته.
إن ثورة المعلومات والإتصالات كثّفت إمكانيات المعرفة والتطور... حتى باتت قلة فقط قادرة على مرونة النفس... وأقل منهم فى إستباق الخيال... بينما استدارت الأغلبية... ولهم عذرهم... كفرا بالمستقبل، وتشاؤماً من التطور.

إن اللغة المتداولة فى كافة المجالات تتغير بمعدل لا يترك مجالاً لمعظم الناس، حتى من المختصين... غير رفضها... خير من رفض قدرتهم.
والذين يعيشون فى بؤرة الحضارة... تأتيهم الوفرة من المعلومات من حيث لايدرون...
بينما يجاهد الذى نأى عن البؤرة فى طلبها... فإن نجح... يظل يدفع من حياته وجهده ضريبة لتطوره ومعايشته لعصره... محاطا بغفلة المجموع عن حقائق العصر وإمكانياته... وهم فى أمسّ الحاجة اليها.
إن التحليل الغالب فى مجتمعنا لما يدور حولنا من تجاهل وتقاعس عن العلم وتطبيقاته الواجبة... هوتحليل أخلاقى... فقط؟

إن للوجدانيات أثر مباشر على تصرفات الناس...
هذه الوجدانيات تُشَكِلها عوامل متضافرة من القيم الأخلاقية والجمالية والواقعية.
ونحن مصرون على التمسك بالإيقاعات القديمة التى لم يعد لها مردود فى عصرنا... أوقيمة إيجابية.

إن الواقع العلمى ما لم نسلم به... إختلت وجدانياتنا... حين تتنافر القيم...

فالأخلاق فى ناحية، وتذوقنا الجمال فى ناحية...
وإيماننا العلمى فى أخرى. نفقد وحدة القياس... فلا نتفق على المقياس.

الحادث فـى الكون هوالحركة. والبادى للحواس، فالعقل، هوالتغير...
والانسان خيال نشط يتغير...
ويُغيّر، والذى يرفض التغيّر...
ينكر وجوده، ويغلق واعياً أوغافلاً قدرة إبداعه وانسانيته...
سواء كان شخصاً أم مجتمعاً أم عصراً.
فالإنسان قادر إلى حد... على الخروج عن الإيقاع الكونى...
ليشرد بحريته، ثم ليعود فـى تناغم مع الكون... بحريته أيضاً.

ولكنه فى كل مرة يشرد ليأتى بالبلسم الجديد...
يعالج شروده وشذوذه وتمرده عن قبول القدر الساكن للجماد أوالمستكن كالحـيوان.
فهودائم المحاولة لإبداع بيئته المصطنعة...
تارة محاك للطبيعة، وتارة مجرد لها متجرد من أشكالها.
لكل زمان رموزه... تتجمع فيهم إرادة القدر الانسانى للعصر...
تتجسد فى أفعالهم وأقوالهم الدواء الشافى لإختلال المجتمع وشروده عن فطرة الطبيعة...
ثم الى شرود آخر... وعلاج آخر دواليك.

يلجأ الناس الى كل الدروب لتوفيتها... والتفرد يوفى هذه الغريزة فى بُعدها الاجتماعى... كما يوفيها فى الجانب النفسى...

من أنا... ولم جئت... وما دورى... ما لم أوفّيه... لن يقوم به غيرى.

أنا نسيج وحده فى هذا الكون... ولست مع القطيع.

الطفل يعى تفرده من إهتمام أهله بكلامه "المكسر" وبتصرفاته الشاذة.

وقد يظل هذا الوعى مسيطراً على أفعال الكبار... فلا يكبروا.

ثم يأتى التزين... الذى يصل الى درجة الغريزة فى الانسان... اضافة بالمساحيق، وإزالة بالحلاقة...

ورغماً عن العصور التى يتصور البعض أن المنطق التجريدى فيها قد طغى... بفعل التطور العقلى والعلمى على الخيال العاطفى... إلا أن التزين كان متخفياً... إلا عن أصحاب البصائر.

والآن يغلب على الفكر الحديث الاحتمالية... عوضاً عن اليقينية... التى سقطت تحت ضربات التحليل الفلسفى، وأوقعت ابن آدم فى حيرة الشك... ميراثاً من أبويه... الذى أخرجهما من الجنة.

ولم يعد الإنسان الحديث يستحى من رغباته وعواطفه، وأدرك أنه ينمو فى الإتجاهين... عقلاً وخيالاً... إن كان له أن يتطور... ولا يعيش إنسانا أو مجتمعا فى إنفصام.

والعصور الثرية المبدعة... تحاور فيها العقل والخيال... التجريد والتزين

وتصالحا على ما سمّى طراز.
وقد تعاقبت الطرز... حتى جاء العصر الحديث بحفرياته ومكتشفاته. فظن أنه قد شب عن الطوق... وعن الطرز... فإذا له أيضاً طرازاً يحكمه من حيث لا يدرى... وهل كان الفراعنة يتصورون أن لهم معتقدات تحكمهم، وقالب يتبعونه وطراز يميزهم؟!
أم كانوا متصورين مثل تصورنا فى النصف الماضى من هذا القرن... أنه اليقين والحتم والعلم.
من الخطأ أن يصل المجتمع فى تصوره أن أفعاله تسلية خارجة عن القصد والهدف الكونى... بهذا يهدم أساس جديته وإبداعه، الذى يحتاج الى تفان ... الى فناء فى هدف مجسد فى خياله... يحقق له الإستمرار، ويزين له الأبدية.

إلا أن الجمود اليقينى أيضا... يفعل فعل التسلية فى البُعد عن الابداع ودوران المجتمع حول نفسه أوحول آخرين فى نضب وتيبس.
إن قدر الإنسان وحريته أن يظل فى أرجوحة الزمان بين الشك واليقين، فيحاول ويحاول... طفلاً بلا كلل ولا ملل.

والمبدعون الحقيقيون يعرفون شعور يقين اللحظة... الذى يملأ كيانهم، والذى يتحول مع نموهم وتجربتهم واستوائهم الى صدق اللحظة... عوضاً عن يقينها الذى يتهافت مع الكبر... ليسلم راية الإبداع الى جيل آخر... وحضارة أخرى... يملؤها يقين لحظة أخرى.

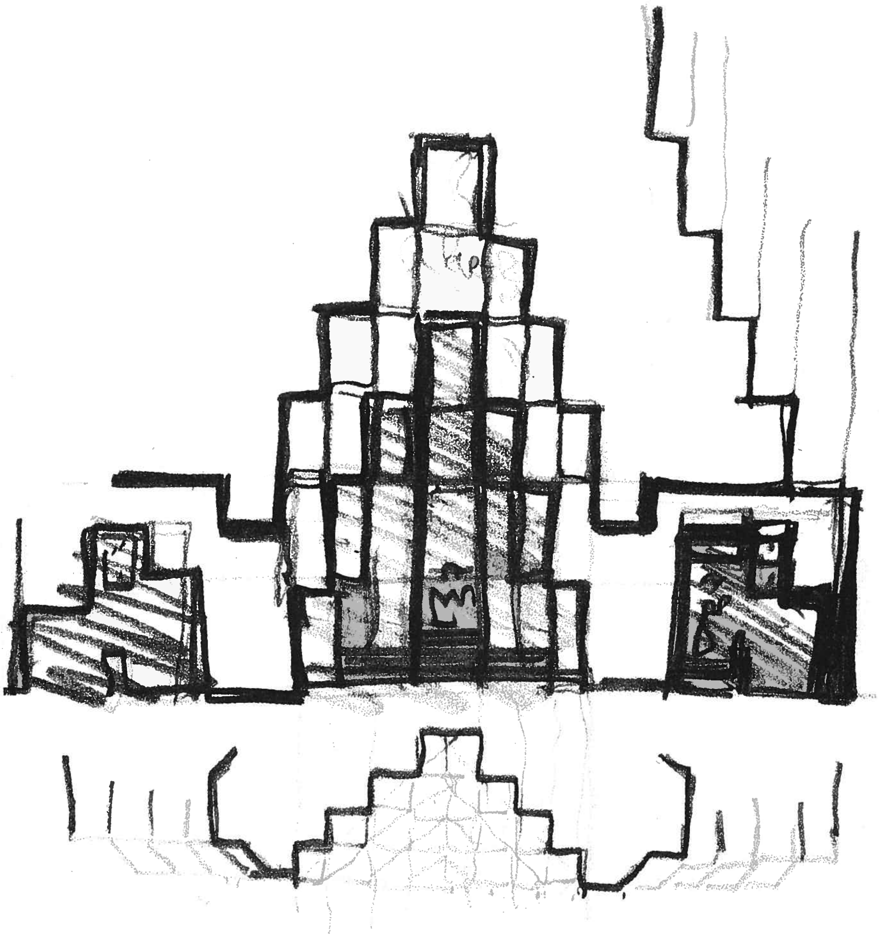

الأولى جمالية... إذ تبهره الظاهرة.
الثانية معرفية... عندما يتساءل عن سببها.
الثالثة نفعية... حينما يفكر فى إستغلال إمكانياتها.

ومكونات الانسان النفسية تختلف باختلاف هذه الإستجابات ونسبة تأثره بكل منها.
والذى تحتويه موهبة الفن تسيطر عليه الإستجابة الأولى... لتجعل حياته انغماساً فيها... يسخّر المكونات الاخرى لتحقيقها.

فملكاته المعرفية والنفعية... يخدمان غريزة الفن والخيال بداخله، ليزداد ثراء وإيجابية وعطاء.
وتمر بالفنان فترات ينهل من المعرفة... أويسترسل فى إستغلالها... ولكنه يكتشف.... متأخرا... أن ذلك كله لصالح ملكة الفن.

إن الايقاع... والاتزان... والوحدة... هم همه الأكبر، وهم حيرته فى اختلاف الليل والنهار... وزفرات النفس... ونبضات القلب.
وهم انبهاره باتزان الأرض وتوائم الشحنات... وتعادل القوى وهم استسلامه التام لوحدة الكون وتآلفه.

إن حياة الفنان اكتشاف دائم لعلاقات جديدة... وامكانيات جديدة... سبل جديدة ومظاهر جديدة لقيم الفن.

الإيقـــاع....

الإتـــزان....

الـــوحـدة....

وسواء كانت وسائطه سمعية أوبصرية.. أوخلافهما... أم كان معمارياً يحاور الوظيفة أوالمنشأ... يستعمل الحديد أوالحجر... فالقيم الفنية هى مجاله، والسيطرة عليها هى معركته... وهى ربات الفن...

تستنفذ منذ الأزل كل ما فى الكون من خيال، ولا تزال تبحث عن عشـاق ومريدين... وقربان.

إن الانسان يجاهد ما وعى... معركة مذهبية بين القبح والجمال... يستعين بالعقـائد... والأساطير...

والمذاهب... يجهد الفلسفة... يمتطى العلم ليكتشف فى النهاية أن الطفل... والبدائى... أصدق تعبيراً وأوسع خيـالاً... وأقرب حقيقة... وحرية.

هذا ان كنا نتكلم عن الفن... راوى الخيال الأول، وليس عن الصنعة... الحرفة... التجربة... أى عن استغلال الفن.

ولكن... كم هوممتـع إستغـراق الانسان فى الفـن...
وكم هوبديع سعيه لامتلاك الصنعة والحرفة والتجربة... كم هومدهش استغلال الفن لصالح البشر.

الفنــان

الفنان شجاع... شجاعة ذاتية... لا موضوعية... فهولا يرتمى فى الجديد ويهرب... بل يرمى نفسه... ويجاهد الى منتهى قدرته، وشفاف حسـه... متجدد رغم أنفه... مفاجئ لنفسه قبـل غيره.
حياته كلها دعوة الى تأمل الحيـاه... والطبيعة... والحقيقة... والصدق.
هوملتزم... وأعماله تجسيداً لهذا الالتزام... يكلـّفه حياته وراحته وفى أغلب الأحيان احساس الناس به... وتقديرهم.
ومحنة الانسان حينما تتعارض غرائزه....

والفنان تتعارض فى كل لحظة الغرائز بداخله... خاصة الحاجة الى التقدير، وجموح الخيـال.
وفى العمارة تصل هذه الشجاعة الى مداها... فالعمل المعمـارى نتاج ساعـات تصـل الى سنـوات... والاقدام على الجديد غير مأمول القبول والتقدير، وهومن ضروب الخسارة الفادحة التى تنوء بها المؤسسات، هذا فى مشروع... فكيف بفـنان يكون قدر حـياته... الجديد... فى مجتمع عتيـق!

خيال الإنسان يسبح على بساط من الأمل... نُسج من عقيدة ومعرفة.
من الناس من رسخت عقيدتهم وتعمقت معرفتهم... وتمكنت فيهم قوة الحياه فدفعت أحلامهم الى آفاق مستقبلية.
طار بهم البساط بعيداً... عن جيلهم ومجتمعهم... فعاش جسدهم فى عصر وروحهم فى آخر.
هؤلاء اغتربوا فى أوطانهم... كلما طال بهم الأمد... إزدادوا بعداً عن جيلهم وقرباً من البراعم الصاعدة... الذين يحيطونهم بالدفء العاطفى اللازم لحياة الانسان وانبثاق زهرة حياته وتفتحها.
إن الفنان المتطور... انسان باع الحاضر من أجل المستقبل...
وليس هذا إختيار منه... ولا فضل يحسب له... بل هوطبيعة فيه وقدر يسخّره.
وهوإذ يعى دوره... ينغمس فيه... فتكون حياته توريث لخبرة... أكثر ما هى فعل فى واقع.
إن ضج بتجاهله فى أحيان... فهوفى نشوة الجد والإجادة والمبادرة فى أغلب الأحيان.
ولا أتصور أن تمنح الحياه كل عطاءها لأفراد وتحرم آخرين... بل قد توزعت الأدوار... وقُسّمت المباهج.

حواس الانسـان لهـا حـدود...
فلا الأذن قادرة على التقاط كافة الترددات...
ولا العيـن مبصـرة لكل المـوجـات...
ولما كانت الحواس هى مصادر المعرفة فى تجربة الانسان، كان العقل كذلك ذو حدود...
وهى حدود حضارية... فما تعيه حضارة...لا تفهمه حضارة أخرى... وما يحد عقل... لا يُحجب عقل آخـر عن إدراكه.
وما هومقبول فى عصـر... لا يسمح به فى آخر... وإن كان للعلم رهبة تمنع عامة الناس أن تختلف معه، فليس للفن نفس القداسة... رغم عمق أثره على وجدان الناس ودوافعـهم.
بذلك يختلف النـاس واستيعابهم لاتجاهات الفن ومنجـزاته...
ويمكن أن نصوّر قبول الناس ورفضهم لاتجاه... بانحصار عقل المجتمع فى حدود مجال معين لا يستوعب فكر أضيق من دائرة مجاله... ولا العكس.

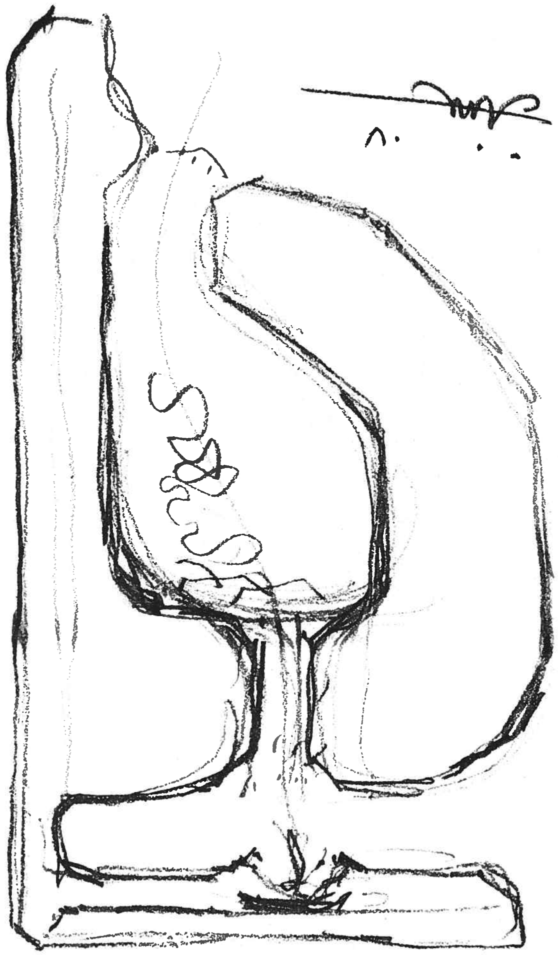

ضــرورة الفــن

لو كان لى الخيار... لاخترت أن أوجه طاقتى للتنوير... أين الطيب من الغث... والجميل من القبيح... أن أبـّصر الناس بما استغلق عليهم من المباهج والرؤيا... مما زخرت به الدنيا من جمال... والخيال مـن الفـن.

وكما قال أحد الفلاسفة "إن للقراءة لذة... لوعرفها الجُهال لحاربونا فيها"

أقـول نفس التعبير عن الفـن والجمال. ولكنها لغة... من حق الناس أن تتعلمها... وأن تعيها لترى كما يجب أن ترى، وتتطور رؤيتها كلما نما العقل واتسع الأفـق.

إن الفـن ضرورة... ما دام التطور انسانى... وتثقيف الناس فنياً واجب إجتماعى لا يقل خطورة عن القراءة والكتابة والحساب.

كيف لى بأناس عميت أبصارهم عـن الجمـال...

وآذانـهم عـن بديـع النغـم...

ثم أبغـى لهم نـماء ورقـى...

كيف الحال ببشر لم يتحضروا بحـواس مثقفة تهذب مـن غرائزهم...

وذاتيتهم...

أيكـون نـماء...

ويكون رُقـى... وانسانية

ألسنا من قرر...

ليس بالخبز وحـده يحيـا الانسـان

ألسنا من اعتقد...
أن الله جميـل يحب الجمـال
ألسنا من خلف حضارة تشهد بجمالها كل الأمم...
أم أننا أخذنا بمادية العصر وغفلنا عن أعمدة صرحه من فكر وعلم وفـن.

الدراسة... الثقافة... المنهج... الخبرة... الصنعة... الموهبة... الالهام... كلها عناصر وأبعاد... يتجادل المختصون وغير المختصون فى أثرها على الفن والإبداع الفنى.

نحن نعيش عصر العلم والطريقة العلمية، والانسان منذ وعى ذاتيته فى مقابل العالم الموضوعى... مثل مـا يعى الطفل فطامه الانسانى عن أمه... ممزق بين حيرة الأسباب وضرورة السببية... فأبدع الأساطير يكلم السحاب ويحمّل الريح المسئولية... ويتزلف الى الشمس.

ثـم جسـد الطـواطـم معبـودات...

واستقر بها زمناً مجسدة مشخصة...

ثم تطورت الى آلهه مجردة للخير والشر... رموزاً تعينه على نوائب الدهر وتحمل عنه أوزاره، فهناك دائماً وراء الأفق الشعورى ظواهر مدركه... ورزايا منكره. وعقول حائرة... ووجدانيات تئن من وطئة تراث كونى ثائر غامض مبهم ضاغط...

ونفوس تستجدى استقراراً وسكينة... وجهاز دفاع غريزى انسانى يقف بالمرصاد لكل توترات السطح الشعورى... يدفعها بكل طاقاته التبريرية الى اعماق حالكة الظلام... فتستقر هامدة خاملة كطبقات جيولوجية متكلسة فى اللاشعور.

ومعجزة الكون أن يقذف تارة بعد تارة بأجيال بشرية جديدة... تحمل تراثها بمنجزاته وتتحمل خطاياه وآلامه.

والعجيب أن ينزل هؤلاء الى الملعب وبهم قدر من المرونة والحرية تسمح لهم ببداية التساؤل وحرية التصرف، تدفعهم وبيئتهم الى التطوّر... ليجددوا شباب الحضارة، وقد تمكنوا من السيطرة على أيامهم وزمانهم.
أما أن يكون طالعهم سيئ... فيحاصرهم أسلافهم... ويديروهم فى ساقية أحلامهم وإشكالياتهم، ويجرونهم معهم إلى طبقاتهم الجيولوجية. هنا ينهار البناء الانسانى ويتقهقر الزمن.
لكل عصر مهما كان لونه وطاقاته فئة بها قدرة على التأمل... بصيرة نافذة... وحس صادق ولسان مبين... هم بصمة زمانهم وشواهد بقاءهم.
انهم قدرة الإستقراء والنفاذ الى الأعماق... وبركان القدر يصهر اللاشعور وينطق بحممه ليستيقظ أهل الكهف.
هم الأنبياء والرسل... ثم الحكماء والفلاسفة... وهم العباقرة... والعلماء والفنانون
ولقد تقدمت المسيرة الانسانية يرتادها هؤلاء... فكان ما نعيه وما دوّناه وما نتوارثه... وانها لرحمة ان تكون الإستجابة على قدر التحدى.

ولقد بلغت التحديات قدراً وكماً لا يفى بإحتياجه مقولات العباقرة، وقد عز الزمن عن كفايتهم... فكانت الطريقة العلمية...
لقد تعلم الانسان من النمل والنحل... واستحدث حلول الخطوة بخطوة... والطبقة فوق الطبقة... والجماعة على الجماعة... فكانت النهضة الحديثة وايقاعها المتسارع. ووقف الانسان فى خوف أن ينطمس تحت أكوام مبتكراته الفكرية والتكنولوجية...

وعـاد يتسـاءل مع الطـفل من أين؟... والى أيـن؟...
ولما كانت المبتكرات الحديثة تتم فى دهاليز وأبراج عاجية... أوفى محتويات حضارية نائية... فقد عاودت الانسان غربته... ليست عن الكون ولكن عن بيئة من صنعه... وجاء يتساءل من وكيف؟...
الدراسة... الثقافة... المنهج... الخبرة... الصنعة... الموهبة... الإلهام...؟! إن إستقراء التاريخ يؤكد أن الإبداع يحتاج الى هذه العوامل... ليتشخص ويومض بريقه فى فـرد.

فى عصور النهضة حيث الحضارة فى تصاعد... تتفاعل هذه العوامل داخل المجتمع والنفس البشرية ليفيض عطائها موجة بعد موجة... وتتكرس كل هذه العوامل فى خدمة المبدعين... لصقلهـم وتدريبهم ودفعهم. فيتوهج المجتمع بين مبدع ومبدع... ويتوحد المجتمع... ويعـى كل انسان دوره...
ويعرف حدوده، ويحترم مهنته ويسـعد بعطـاءه.

وفى عصور الانحدار يكون العكس... تتحلل القدرة الاجتماعية وتتفكك... وتتوه الأدوار وتهدر الطاقات... لتصبح الدراسة محفوظات... والثقافة تباكى... ويظن أهـل المنهج أن انشـاده ابـداع... وينكر الجميع قيمة الخبرة، فتموت الصنعة ولا تـورث.
ويصعد الموهوبون ليؤذنوا فى بيئـة أصمة... وينحصر الالهام فى السخرية والنكتة والفكاهه... لنستغرق ونستميت فى الضحك على أنفسنا بل تصبح هذه الظاهرة... هى أهم ما نؤدى من شعائر.

تارة يقولون... الانسان هوما يأكل...
وتــارة مــا يقـــرأ...
وتــارة مـا يسـكن اليــه...
وكثيرا ما نسمع أن الفجوة فى مجتمعنا كبيرة بين الصفوة والأغلبية... صفوة غنية وأغلبية معدمة... صفـوة مثـقفة... وجماهير جاهلة.
ولفظ مثقف عندنا... مرادف لانسان، بجانب ما يحتويه بالوراثة والتواجد والتحصيل من تراثنا، فقد تزين... واستزاد من ثقافة الحضارة الغربية المعاصرة بأبعادها العلمية والفنية، والتكنولوجية.
والبُـعد الفنى... من أكثر الأبعاد التصاقاً بوجدان الانسان والمجتمـع... وتعبيراً عن دوافعه الدفينة حيث يكمن مـا يحب ومـا يكره.
وربمـا صـدق من قـال أن الانسان هـوما يحب وما يكره!
والمثقـف عندنا قد يأخذ من العلم وصكوكه ما يحقق له مكاناً... ومكانـة فى المحافل، وغالباً مـا يزين حياته بكل المنجزات التكنولوجية المعاصرة... تظهـره بالنجاح والمعاصـرة.
أما ما يتعاطاه من ترياق الفن... وما يطرب له وينتشى... فعلى أكثر تفاؤل من القرن التاسع عشر... تنازلياً... بإستثناء قلة متعلمة مثقفة ومتخصصة...

فالكل تهيم روحه فى عصور ثقافية سالفة... أى أننا سلفيون النظرة والرغبة والاستمتاع، ونستميت دفاعاً عن التطور والتحضر... والتقدم.
وما يزيد الانسان احباطاً فى مجتمعنا... كره معظم من يحيطونه من معارف وأصدقاء لكل ما يمت الى عصرنا من فكر وفن وحديث.
بدءًا من الفلسفات المعاصرة... والفن المعاصر... والعمارة المعاصرة... الى الأثاث المعاصر.

ورغم أنهم من صفوة مجتمعنا... علمياً... واجتماعياً... ومادياً... ومسئولية فهم محسوبون على الثقافة والصفوة المثقفة... بمفهومها المعاصر. تلك الثقافة التى تدفع الانسان الى ارتياد المستقبل.
وهم دائماً ما يتهمون معارضيهم... بعدم العلم والبعد عن الفهم الصحيح للفن وعدم الالمام بالنظريات الحديثة... بل السطحية والجرى وراء الموضة التافهة المنقرضة.

ما أحوج هؤلاء الى اعادة ملئ ساعاتهم الوجدانية برحيق العصر... من المعارض والمتاحف والمسارح والندوات والمراجع الحديثة.

وما أحوج مجتمعنا الى صفوة تقدمية عصرية... يموج وجدانها بمختلف المشارب والثقافات... واعية بالحوار العظيم الدائر منذ فجر الضمير الانسانى... والذى لم ولن ينتهى ما دام الانسان... انساناً... لم يتقوقع فى مذهب أونظرية، ولم يهرب فى سلفيه... أوتظاهر بتقدمية... أوتعقّد فى صفوية زائفة.

إن الذى يقود المجتمعات نحوالخروج من مأزق الجمود... هم جماعة تحلت برحابة نفسية فائقة... تسمح بتقبل الجديد المناقض للمألوف... واحتماله.

وبفضول طفولى يدفعها نحوالمجهول لاكتشافه... وبصيرة شفافة تنتخب الصالح من الطالح... وشجاعة شيطانية تحول بينها وبين السقوط فى عدمية اليقين.

مثل ما كنت... فى المدرسة...
أتحدى مدرس الهندسة... فى حل التمرين
بمجرد أن يضع المطلوب على السبورة...
أحل المُعضلات المعمارية... بنفس السرعة والتلقائية... ويسبق خيالى عقلى... قبل أن يحول المسألة الى دروب المنطق والسببية بداخلى... فاترك لمحة خيالى تسد عليه كل المنافذ العقلانية... لتكون الغلبة دائما للمحة الفن... تجد الحل... لما يحار العقل فيه... آماداً طويلة، فيأتى الحل سلساً... ليناً... حبيباً الى القلب.
والعجيب اننى لم اعدم وسيلة ان اسرد تسلسل فكرى بمنطقية... وعلم... ادهش له.
لكن ذلك يأتى دائماً بعد انتهاء الخلق الفنى... أما فترات النضب الفنى.. وهى ليست بقليلة فان العقل يقودنى الى حيث يشاء... بغير رضا منى... ولكنها ضرورة الحياة.
لا أظن الفنانين مختلفين عن ذلك... ولكنهم ينكرون... حيث حقق العلم ذلك الانتصار الباهر الذى تتوارى منه خجلاً كل مسارات الوجود الانسانى الأخرى... رغم ما حققته على مدى التاريخ من منجزات... آخرها العلم نفسه.

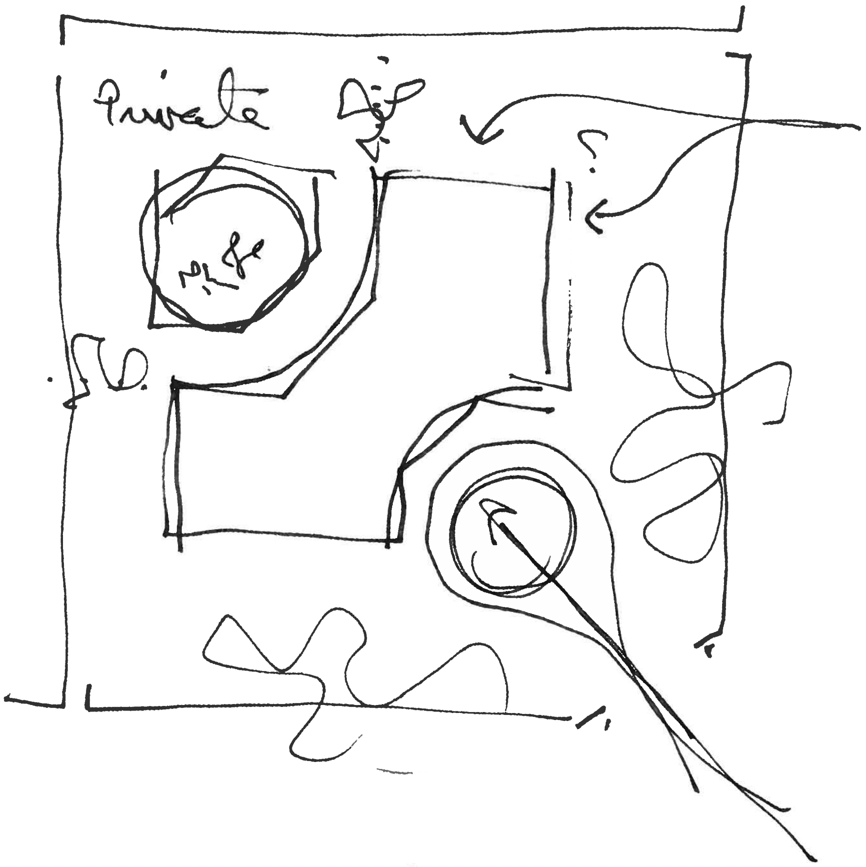

راه‌حل اول

قد أبدوأحياناً فناناً... لا يلازمنى منطق علمى... ولا تحكمنى عقيدة فلسفية.

وقد أبدوأحياناً علمياً... أحصر الفن... وأضيق عليه الخناق... وأحرج الفلسفة فتهتز يقينياتها.

وقد أبدوأحياناً فلسفياً... ذووجهة نظر... مستعين بها على نقد معتقدات الآخرين... العلمية... والفنية ولكن حقيقتى... مهنتى... ممارستى... وكنيتى... معمارياً.

نسيج يزداد احكاماً يوماً بعد يوم... من الفن... والعلم... والفلسفة... ومعاناة دائمة للفكاك من حبائلهم.

يقول أستاذنا / على لبيب جبر أن المعمارى تبدوأخلاقه فى مبانيه... مخادع... صادق... محب للتظاهر مستعرض لعضلاته... مفكر... سطحى... متأكد... مهتز...

لست أدرى إن كان هذا حقيقى أوعلى الأقل يمثل كل الحقيقة...

وهوعلى كل حال لا يصدق، إلا إذا تمكن المعمارى من مهنته ومن قدرته على تحقيق فكرته والسيطرة على كل العناصر والعوامل التى تدخل فى التأثير على الناتج النهائى... لرغبة... كانت فى ضمير الممول يعيها عقل المعمارى... يحملها قلبه... فيعتصرها وجدانه فى صورة مخطوط هلامى مبدئى... يظل يتلقى النقد والترحاب، والرفض والقبول... ثم يدلوا كل انسان يشترك فى هذا العمل الجماعى " فن العمارة " بدلوه... من الممول الى المعماريين... الى المهندسين الاخصائيين... الى المقاولين... الى عامل القصعة.

ومهما كان المعمارى بارعاً، فهوفى أغلب الأحيان قاصر عن السيطرة على عزف هذه السيمفونية البنائية... خالية من النشاز... فى جمع لا تجمع بينهم وحدة عقيدة أوفكر أومفهوم عام.

فقد اختلط الحابل بالنابل فى خضم عالم القرن العشرين، حتى أحس العمل الجاد المناسب الملائم لبيئته ومقتضى حاله... بغربة هلين فى طرواده.

وإذا كان لى أن أعترف بتجربتى خلال خمسون عاماً من الممارسة الحية لمحاولة البناء، فليس لى أن أقول أكثر مما قاله برتراند راسل:

" إن الانسان فى محاولة الفهم، مطالب بقدرتين... أولهما الخروج من الذاتية والحكم الموضوعى... قد تمكّن بعض العباقرة على مدى التاريخ من هذه القدرة، وثانيهما الخروج من حدود مفهوم العصر... وهذه الخاصية لم يتمكن منها أحد ".

وإلا استطاع الانسان أن يخرج من حدود المكان والزمان، وهى استحالة انسانية... وبذلك فأنا أقرب الى رأى " ميس فان دى روه " عندما قرر:

" ما نحن إلا منفذين لإرادة العصر ".

ولكنى لا أستطيع الهروب من مسئوليتى عن محاولاتى وأفكارى التى ترسبت، وهُرّبت تهريب المخدرات لتجد لها مكاناً فى الواقع... أعبر به عن نفسى، وأحقق به ذاتى... وأنسبها الى إذا نجحت، وأتخلى عنها إذا فشلت... تماماً... كما يفعل الآخرون.

وهى بالضرورة شواهد قائمة تقاس بها قدرتى... وأخلاقى... ومفهومى... وتوفيقى فى حين... وقلة حيلتى فى أحيان.

الاحتياج الاجتماعى...
مفـاهيـم العصـر...
الدوريات المعمارية...
الــكتـــب...
الوعى العـام للناس...
البيئة العمرانية المحيطة...
المــدرســـة...
المستشـــمـــر...
الحـــرفـيون...

المجموعة المتعاونة فـى انجاز العمـل الابتـكارى... وهـم كثـرة!

لسـت أدرى إن كانت هناك مهنة تتدخل فيها كل هذه العوامل - على سبيل المثال لا الحصر - فى كل خط وفكرة وقرار وانجاز... كتلك المهـنة المسمـاه... "المهنـدس المعمـارى"

والذى كان الى عهد قريب مسئول عن كل المظاهر العمرانية التى تثقل كاهل العالم بتتابعها وتواجدها... وتحصر الانسان فى أنماطها حين يفكر فـى الخروج منـها.

يفكر وهوجالس على كرسى... فى حجرة فى شارع... فى مدينة... فى محتوى عمرانى.
انها مهنة اجتماعية لا يُجيدها إلا من تأصلت فيه الحاسة الاجتماعية...
وتمكن منه حب العمل فى الجماعة وحب الجماعة فى العمل.
تتمتع نفسه وقلبه وعقله بمرونة وبراح لاستيعاب كل ما حوله...
ونعمة استخلاص الحسن فيه... والتغاضى الكريم عن غير الموفق.

بهذا الواقع... لا يستطيع أن يدّعى أنه صاحب كل نجاح فى معضلة، أوتوفيق فى فكرة لكنه احترام التاريخ والتوافق مع عصره، وحب الناس، وقدرة على الأخذ ورغبة فى العطاء.

و فى نهاية المطاف...
صبر لا يبارى...
ومثابرة لا تلين...
واصرار لا ينثنى...
وبوتقة تنصهر...
ونفس تحتمل...
وتوفيق.

أبحث عن الحل المعمارى الـذى...
ليس الوصفة العقلية مثل حبة الفيتامين... لكنه مثل الفاكهة...
تذهب الى أوصالى... وتمتع سمعى...
وبصـرى... ومذاقى... وملمسـى
وشمـى وراحــة نفســى.
أبحث عن فراغات يركن فيها الناس لوظائفهم...
لكنها فراغات تتحاور فيما بينها بلغة النمل... لا يسمع دبيبهـا الا ذوى البصيرة.
انهـا لعمـرى تخلـب الألباب!
تلك اللغة السلبية... حوار الفراغ... تفعل فعلتها فى غياهب النفس الانسانية...
فتروعهـا تــــارة...
وتهـــدأ بهـا تـارة...
تتـوقعهـا فـى حين...
وتفـاجئوها فى آخـر.
أبحث عـن الكتلـة التـى تتحـدى الجاذبيـة.
عن اللون الذى يزهو... عن المساحة المثلى...
إن صغـرت ضاقت، وإن كبـرت تـاهـت.

أبحث عن الفراغ الذى أحسه بصدى خطوتى فيه...
والملمس الـذى يـحد تصرفى فـى المكان.
أبحث عن الضوء... أتحكم فى درجته... يداعبنى فى عطاء الوانه وفى رهبة ظلمته.
أبحث عن رحيق الأزهار يعبئ أنفاس المكان.
أبحث عن جذور بداخلى فى شوق لتجاوب... أبحث عن امكانيات يتيحها عصرى... أبحث عن استقراء لمستقبل أولادى... أبحث عن عمارة تستحق أن تلقب بجدارة « أم الفنون ».

وأنا مبتدئ... كانت تخرج منى لمحات جديدة...
تفزعنى!
كانت غريبة على كل ما تعلمناه... وتعودناه...
ولكنى لم أكن أملك منها فكاكاً.
وكثيراً ما كان ينقذنى من هذا الخوف...
غرابة الحل.
فكان المستثمر يعفينى برفضه الفكرة عناء تحقيقها.
ولكن الحال لم يعدم بعضهم من قبول الفكرة، فكانت تنتابنى لحظات أتمنى فيها المستثمر لوباع الأرض...
وكفى المؤمن شر القتال.

ما هو مذهبي المعماري...
أي الاتجاه أقرب الى...
أي الأوقات أخصب انتاجاً...
أي الأعمال أقرب مني...
في البداية... كان الفن تعبيراً عن الحقيقة
ثم كان... وحدة الشكل والمضمون...
ثم كان... الأصالة والمعاصرة...
والآن... الخروج من العالمية...
الى ما بعد الحديث... والتقنية العالية
وبعد ذلك... لا أدري!
يبدو أنني أعايش كل الاتجاهات المسيطرة على عصري... ولا أستطيع الافلات من سحرها.
على الأقل لم أجمد... ولم أهرب في مذهب... ولم أسقط صريع اتجاه.
وإن كانت دراستي الأكاديمية ما زالت توّجهني
وأيام المراهقة الفكرية تفتح امكانياتها... كلما روتها التجربة.
ولازالت قريبة مني مشروعات الكلية قرب آخر وليد.
ولكن هناك علامات على الطريق... تظل على الأقل مصدر اعتزازي وتحقيق ذاتي... تلك من آلاف المشروعات التي صممتها هي معالم حياتي المهنية... وهي قصائدي المعمارية.

ليست مهنتى مهنة فردية... ولكنها جماعية من بدايتها قبل المعمارية... الى نهايتها فى آخر مسمار نجار وفرشاة نقاش.

حتى أثناء خلق الفكرة... المناقشات والآراء واشتراك عشرات المهندسين... ناهيك عن مختلف المهن التى تدخل وتتداخل.

إن فن العمارة فى صميمه فلسفة... وجهة نظر... وتخصصى فى العمارة هوفلسفة الفكر.

أوقل اللمحة المعمارية التى تهيمن على المنشأ الفكرى... قبل المنشأ البنائى... الذى يطلقون عليه عمارة.

هذه الأعمال التى أطلق عليها قصائد... تبدوفيها وجهة النظر المعمارية... اللمحة، مسيطرة... وهذا ما يعطيها هذا التنوع والتفرد.

إن اللمحة عادة تسيطرعلى... قبل أن استغرق فكرياً فى دراسة المشروع، وعادة لا أكون واعياً لأبعاد الفكرة ومنطقيتها... لكنها فى النهاية تحصل على جواز المرور العقلى.

هذا هوالفن... وحدس الفنان... الذى يتجاوز التسلسل المنطقى والاستقراء العقلى، بقفزة الهام فنى.

ليس الفن ترفيه وتحقيق لنزوات الانسان
الفن جواد جامح يجر عربة فضول الانسان خلال دروب المعرفة المظلمة...
تهز الناس المستكينة من وجودهم السلبى... حين استسلموا لتقليد كل ما هوقديم وماض.
أغلقوا عليه صندوق النذور والغموض... يمارسون الشعائر يوما بعد يوم.

والعمارة كفن... فى صميمها لا تتغير.
إنها المحاولة الجادة للسيطرة على الفراغ.
إنها العمل الدءوب لاكتشاف صميم النظام والجاذبية والاتزان.
إنها تحقيق الراحة واليسر للانسان باتباع منطق الأشياء.
إنها التآلف بين عواطفه وانفعالاته... وفضوله، وهى الفهم العميق لقدرُه... كنتاج لقوى التطور فى الطبيعة من ناحية...
وحامل لغريزة التعقل الصارم الذى يسموبه نحوالتجريد فى الناحية المكملة.
إنها مجال التآلف والتعايش بين الطبيعة والتجديد.
إنها سموالقدرة الانسانية للاعتقاد والاقتناع خلال المسلّمات والفلسفة...
والفن والعلم
والتكنولوجيا

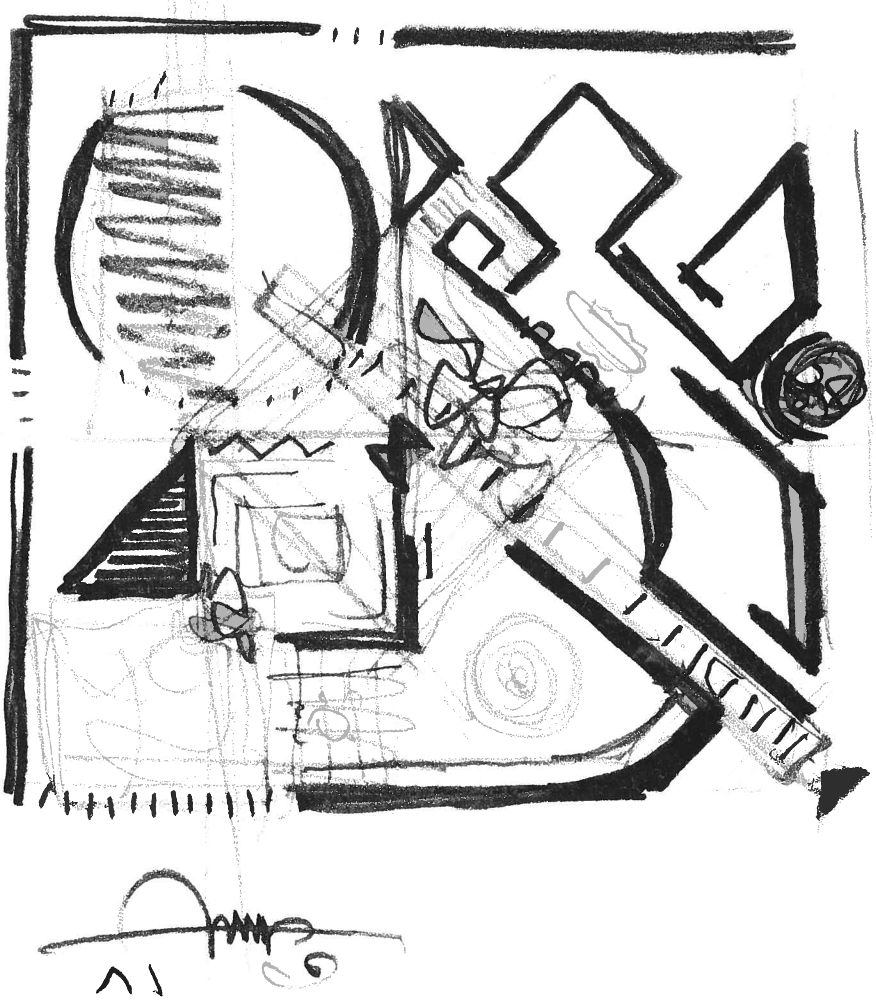

يأتى حينا من الزمن... تعجز فيه قوى الادراك عن تفسير ما يبدوظاهـراً للحواس.

وتفشل وسائل التخاطب المألوفة... عن التعبير عن عمق الخبرة البشرية. فى تلك اللحظات... تتجسد رموز... كشواهد تاريخ... ترمز لما استعصى سرده وتسجيله فى الحضارة الانسانية.

تلك هى الأساطير... الأديان... المزامير... الصرح المعمارية.

هنا تقف المنجزات لتروى قصة الانسان...

هنا يـرمـز الشكل... فيشـف عـن...

١- الانسـان ككائـن كونـى	من خلال دورانه بمسار أدنى جهد.
٢- الانسـان كنتـاج طبيعـى	بالتشكيـل السلـس
٣- الانسان كقـوة فضول	بالتجديدات الشجاعة
٤- الانسـان كاحتياج صوفى	بالرمز الميتافيزيقى
٥- الانسـان كحـاسة سببية	بالحـل المنطقـى
٦- الانسان كمبدع تكنولوجى	بـالـتـنـمـيـق
٧- الانسان كحامى للتقاليد	بـاحترام الثقـافة
٨- الانسـان كفارس للتطور	بالتحرر من الجاذبية
٩-الانسـان كمنظم للفـراغ	بـالـتـآلــف
١٠- الانسان كمعمار للزمن	بصدق التعبـير

للعمارة جوانب كثيرة، ولا يمكن شرح الفكر المعمارى من خلال جانب واحد، وإن كان الفراغ المعمارى هوأصل الاحتياج، فاللحن والملحمة الفراغية هى صميم الفن المعمارى.

الدراسة المعمارية تبدأ أساساً من دراسة الفراغ واللحن الفراغى وجماليات الحس الفراغى.
ورغماً عن أن الوظيفة والمنشأ دائما ماثلة فى مخيلة المفكر المعمارى، إلا أن الدراسة تحصر جل جهدها فى تنظيم الفراغ وتنوعاته وانسياباته ومرونته ودراميته.
وقد يكون للمتوارث أثر فى هذا التشكيل بجانبيه الثقافى والمناخى... إلا أن التشكيل الفراغى كان المباراه التي يلعبها عقل المُصمم مع انفعالاته.
إن التخلل الفراغى وسريان الهواء ونفاذ الضوء والشمس، جوانب كلها مشتركة فى اللعبة... والقياس الانسانى وحركته واستيعابه للتشكيل فى بعده الزمنى... أيضاً مشترك.
الاتزان الكتلى... ومنطق الجاذبية هى حدود اللعبة.
الايقاع الثابت فى التتابع الرأسى للأدوار يحقق الاتزان الديناميكى مع التنوع فى الحركة الأفقية للخطوط بين الكتل والفراغات.
التنوع المتتابع للفراغ بالتدرج الحركى نحوالحبكة... هدفاً أساسياً يسعى التصميم لتحقيقه.

رغماً عن توجه التشكيل نحوالبؤرة الفراغية، فإن الترابط بين الداخل والخارج كان أيضا غرضاً محسوباً.
ويسعى التصميم نحوالتكامل بين علاقة الخطوط فى البعدين وجمالياتها، وبين تشكيل الكتل النحتى، وبين محتوى الوعـاء الفراغى للعـمل.
إن اختيار التكوينات الهندسية عوضاً عن الانحناءات الحرة... لها بعد عملى فى عقل المصمم، وبعد حضرى من تراثنا المصرى.
إن المصالحة بين العقل والعاطفة هى جواز المرور الاجتماعى للعمل المعمارى.
حوار المبنى مع الشارع... مع المدينة... هوفى موقع الصالون من مكونـات البيت له دلالـة ومظهـر وكرم ضيافة.
وعندمـا تتحـاور الكتـل مع الشارع... فهى تؤهل القادم الى الـدخول السمح وتعطيه احساس الراحة والاحتواء... وتدعوه للتفضل دون فضول.
المطلات تتنوع شكلاً واتجاهاً... سواء ما طل على الشارع أوتوجه نحوالشمس... أوالهواء.
لكل دور شخصيته المنفردة... وان كانت تجمعه ألفة العائلة الواحدة مع باقى الأدوار، حيث يمثل التكوين حركات مميزة فى السيمفونية الواحدة.
وهذه التشكيلات تتناغم مع حركة الانسان وتوجّهـه...
وإذا عرجنا على البُعد الرأسى فنجد الفراغ يعلوويهبط تناسباً مع المساحة والعلاقة العضوية بين الفراغات.
يحلوللمعمارى أن يتحلل من كل قيود المنطق والعقل والاحتياج العملى... ليلهوكما يلهوالطفل فى استغراق كامل مع لعبـه.
ولعبة المعمارى الأساسية هى الفراغ... فالفراغ هوالبرحة السيكولوجية التى

يبث فيها المعمارى فائض انفعالاته وأحاسيسه وقيـمه الجمالية.
وعندما يؤدى المعمارى هذا التدريب والانسياب الذاتى فهويكون معمارياً حقاً... لا مهندس... ولا بنـّاء... ولكنه فنان بتلقائية الطفل، غير أن المعمارى المتمرس ليس طفلاً!... إن ضغط المحددات العقلية والعملية من وظيفة ومنشأ وامكانيات وصنعة... يحصره فى ملعب مهما حاول الفكاك.
لكن بداية المحاورة دون موقع وبرنامج وحدود مالية... هى ملعب أبرح تمرح فيه الحاسة الجمالية بمرونة أكثر... بحثاً عن آفاق جديدة فى عالم متغير... ومجتمع ملول.
إن النسيج المعمارى المكـّون من خيوط الوظيفة والمنشأ والجمال... تزداد حبكته بتعمق المعمارى فى الدراسة والتدريب وكافة مجالات هذه الخيـوط.
وطول الممارسة العملية يؤدى بالمعمارى الى التقيد بمتطلبات الوظيفة والمنشأ أكثر من تعبيره الجمالى... وهذا يخل بالنسيج ويحوّل العمل المعمارى الى منشأ أومبنى فقط لا غير.
من هنا نرى أن يقوم المعمارى من آن لآخر باطلاق حواسه الجمالية... وعمل تشكيل من أجل التشكيل... إن كان هـذا ممكنا.
إن سؤال... لماذا؟... يلح باصرار على النفس البشرية... دقات من طبول العقل على رقائق الوجدان.
ولكن الوجدان له خط دفاعه... وله عمق تاريخى يهاجم به العقل، ويردعه.
والدين والفلسفة والفن.... مجالاته... يحاور بها... ويهزم بها فضول العقل ويصرعه... مستكيناً بعد حيرة لا نهائية لمعرفة الأسباب.
والمجتمع البشرى... ما لم ينحنى أمام هذه القدرات الابداعية... فيشرع

بالعقيدة ويناظر بالفلسفة ويآلف بالفن... فإن المجتمع ساقط لا محالة فى دوامة اللا أدرية... وليست المسألة تسلية بشرية وهروباً ودروشة كما يحلوللبعض أن يوصم قدرات الانسان الغيبية... ولكنها ضرورة وجود انسانى يبحث عن هويته... وذاتيته... أن يضيع فى ايقاع القانون الكونى الصارم وقياسه المستعصى على الخيال.

والمعمارى هوالفنان الذى تتخطى وسائله القدرات الفردية... بل هوفن جماعى اجتماعى بالضرورة.
وقد نشأ هذا الفن فى أحضان غريزة المأوى... ولكنه تخطى قياس الحاجة وعبر الى مجال التعبير عن الذات وتحقيق الذات الفردية والجماعية... كغرائز تبحث عن تفرد واستمرارية، لذلك فإن لعب الانسان وحواره الفنى يتعامل معه المجتمع بحذر... ويضن عليه فى كثير من الأحيان بالامكانيات المحدودة... ويضع عراقيل الأولويات أمام الفن المعمارى... ويتجاهل الاحتياج الانسانى أمام احتياجاته الحيوانية.

ولقد تركت لنا عصور التاريخ مدناً وصرحاً معمارياً متباينة الأشكال والتشكيل ولم نعد ندرى أيها كان أوفى للاحتياج؟... وأيها كان أمثل اقتصادياً؟... ولكن التشكيل بقى... تعبيراً عن الذات الحضارية التاريخية فى تفردها المكانى والزمانى... وتعبيراً عن مكونات الوجدان الاجتماعى ممثلاً فى

حاسته الجمالية وتفاعلاته مع البيئة والزمن المتاح وتجسيد ذلك فى عمارة.
ونحن نربأ أن يُصمنا التاريخ، كما أحياناً نوصم أنفسنا، بأننا أبناء عصر برجماتى نفعى... يضحى بكل شيئ فى سبيل المنفعة المادية... معبودة ومعشوقة العصر.
نحن حاملى فيروس الفن فى هذا العصر... سنظل نحاور ونراوغ ونبدع أشكالاً وأشكالاً بوعى أحياناً... وبدونه أحياناً أخرى.
وليس لنا أن نتوقف... فنحن نبض الانسان... للانسان.
نحاول دفع المجتمع... ليتخطى مراحل الحيوانية وغرائزها... لنسموبه نحوالترقى والسباحة الصوفية ثم نعود نبشر الناس بمجتمع جديد ذوقيم انسانية... نسختها معاناته بين الوجود والهوية... بين الاحتيـاج والتعبير... بين القطيع والتفرد... بين العقل والعاطفة.
هذا هوقدر الانسان ومسئوليته وعلـّة وجوده ومحنة ثنائيته... لوترك أحد جانبيها... اختل وجوده.
أيها المعمارى لا تترك تفوق العلم فى عصرنا يحبط طاقاتك الفنية ويحولك الى بنـّاء فقط... فتتردى العمارة... والحضارة.

العمارة فن يخاطب الناس من خلال لغة...
اللغة لها حروف وأسماء وأفعال...
لها مفردات وجمل...
لها متحدثون... وخطباء... وأدباء... وشعراء.
ولها مستمعون... ومستمتعون...
لها تراث محفور فى وجدان الناس.
تراث لكل مكان... لكل زمان.
لها أبعاد وظيفية وانشائية وجمالية.
لها أعماق ادراكية... طبقات فوق طبقات... من العلاقات والموحيات.
من الناس من يحس بطبقة... ومنهم من يستوحى رموزها...
لها مدلولات حضارية...
وهى بالقطع تاريخ مجسد... لمن يريد أن يستقرئ... أويقدر...
انها بحر لا قرار له تصل... ولا يابس تركن... ماسبح خيالك واتسع أفقك.
العمارة كالشعر... توحى مجازاً... لتشكل قصيدة.
لكل قصيدة قصة، ولكل قصة حبكة...
لها بداية... لا تخترع اختراعاً... ولكنها الحاجة...
البداية هى الاحتياج... فتكون الضرورة للتوفيه...

تتولد الرغبة... فتثير الانفعال...
تدفع العقل... تلهب العواطف... تملأ المشاعر...
فتكون القصيدة... نسيجاً من الحكمة والحبكة...
والموسيقى... والمجاز... والرمز... والرسالة.

مأزق التناقض بين العقل والعاطفة... بين الكتلة والجاذبية...
بين الفراغ والمحتوى... بين الشكل والمضمون...
التآلف يحتاج الى عقيدة... الى مذهب... من خلاله يتحول التناقض الى حوار
كحوار الليل والنهار...
الصيف والشتاء...
الرجل والمرأة...

لكل قصيدة بحرها... مذهبها... إيقاعها...
حبكتها... الخاصة بها والتى تحقق لها التفرد والحضور.
بدونها لا تكون القصيدة... ولا يتحقق الفن.
الفن هومنحة الخيال التى حققت للانسان استقراره النفسى...
هوالمروض للقوة الجبارة التى ينوء بها النسان... حب الاستطلاع... هذا
التساؤل الأزلى... يهدأ... يغفل عنه الانسان... آن بعد آن... حضارة بعد
حضارة... بقدرة الخيال... على سد فراغ الواقع العقلى ببدائع الفن.

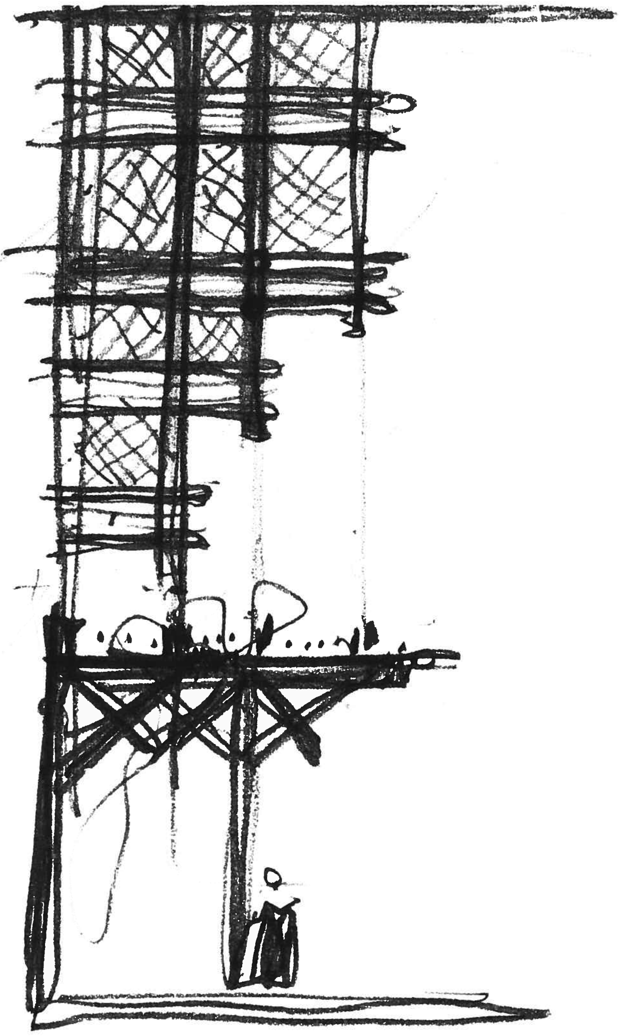

هي المضامين... الرموز... الأحكام
القصيدة سيف يبتر السفه ويمحوه...
والقصيدة المعمارية تقف شامخة فى المكان فتبدووكأنها وحيدة... متفردة... متآلفة مع واقعها الحضارى
المجاز فى العمارة... أن تحس بالصعود والامتداد بتعبيرات ووسائط.
أن تُدرك مضامينها... أن تبدو رمزيتها... أن تثير انفعال الجماهير.
القصيدة حكم عصر فى قضية معنية... عقلية أوفنية أوأخلاقية... وكلها مجتمعة فى العمل الخالد والبيت المحكم.

ما الدهر إلا من رواة قصائدى
إن قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
" أبو الطيب المتنبى "

لقد وضع المتنبى فى هذا البيت... الانسان فى مكانه الصحيح بالكون... فهوالذى يقرض الشعر... والدهر يروى، وما التاريخ إلا رواية للقصائد الانسانية.
فإذا عدم الدهر شعراء... امتنع غرضه...
وانتفى وجوده

أين حضارة لم تخلف قصائد... خاصة معمارية؟!
أيـن مـا رواه الدهـر عنهـا...
إن وجـد الجسد بـالسنبـلة...
فقـد وُلـد الانسـان بالفضـول
وخـُلد بالقـصيدة
والدهــر رَوى

تشهد أن هذا البلد به احتياج للمعاصرة... يُشكل تحـد ...
وإن هذا التحدى يجـد الاستجابة من أبنـاء هـذا البلـد... ً
استجابة مناسبة لنا... نابعة منـا... واعيـة بعصـرنا...
محبة لتراثنـا.
وإن منا من لم تغشمه عقدة النقص... فسقط صريع التقليد الأعمى.
نحن المصريون... نشدوا بقصائدنا المعمارية مستندين الى معجم ناهز الألف السابعة من التسجيل... ولقد عـرُفنا طيلة استمـرارنا بقدرتنا على البنـاء والشـعر والغنـاء.

لست أدرى ما الخطب!
إن الفارق الحضارى بين المبدعين والمقلدين هى سمة كل العصور... فالعامة تتبع قلة تُنشد.
وهل كان الناس على تحضر كبار الفلاسفة والمفكرين؟... إن احترام العلم والعلماء... احترام شيوخ المذاهب جزء من تراث البشرية... ونحن خاصة. بذلك قُدّر للناس أن تصعد درج الحضارة مع روادهم... هؤلاء الرواد يمثلون رغبة الناس فى التطور ويعبرون عن احتياجهم العميق لتحقيق الذات الانسانية...
وهؤلاء لم ينشأوا فى الفراغ، ولم يتميزوا دون سبب أويجابهون تحد بغير معاناة... جماهير لم يعد الواقع المتوارث يفى باحتياجهم، فأثمروا طليعتهم... تقود بلدها الى قدرها.
ولكن العجلة عندنا تكاد لا تدور... والخطباء يصيحون... والأدباء يُجهدون... وشعراء العمارة... تحولت أعمالهم الى معلقات... فقط.
معلقات... لا تجد مكانها العضوى فى خلايا الجماهير... تأخذ وتعطى، بل تظل على أحسن الفروض... كالمعلقات... تنتظر من يقرأ الشعر فى أبراج الشعراء.

أحب أن أكون صادقاً... مع نفسى... أولاً
لأعى ما هى قناعتى... وما هويقينى...
إن كان هناك حداً فاصاً بينهما...
دائماً فى شك وحيرة.
عدم إطمئنان الى فكرة... أواستقرار على مسلمة...
أقصى ما أستطيع... أن أحاور نفسى المعمارية... فهى الحارة التى أقمت فيها أبنية وصروحاً عدة... خلال مشوار حياتى... خلال دراستى وعملى ومعاناتى الانسانية... هى أكثر دروبى النفسية عمراناً.
عندما أناقشها... فأنا أعرج على كافة المسالك الأخرى بذاتى... فقد سخّرت هذه... لاهتمامى الأكبر... العمارة والعمران.
تأملاتى المعمارية كثير منها مسجل فى أوراق... وقليل تحقق فى أرض الواقع... والأقل... أجازت له محصلة التناقضات والتوؤمات، وقدراتى الاقناعية

والعملية... تحققاً قريباً... من حلم خيالى... فلم يتشوه فى المشوار.
تلك المناقشات... تلك التأملات... آمل أن تصل الى القادمين... ليروا كيف انغمست طوال حياتى
أعمـــل...
ألهـــو...
أستمـتـع...
أعـانـى...
أوفى حاجة...
أقطع مـلل...
أفرغ طاقة...
أحقق ذات...
وفوق كل هذا... وأعمق... وأصـدق من هـذا وأخـلص...
كنت فى غيبة وتوحد وتصوف. أؤدى ابتهـالات معمـــاريـة!

معروفة تلك المتطلبات العملية الواجب توافرها فى ما يقوم بدراسته المعمارى من تشكيلات عمرانية...

وظيفية... انشائية... تكنولوجية... اقتصادية... اجتماعية... بيئية.

ومعروفة حيرة المترادفات ومحاولة تحديد الأولويات والخروج بمحصلة وتقييم عملى لكل ما سبق... حتى يضمن المعمارى الجواز العقلى لأعماله ولكن...

الحياة والمجتمع والناس أكثر من مجرد أرقام واحصائيات وأولويات، الناس عواطف وقيم وتقاليد...

المجتمعات تنظيمات متوارثة...

وتجمعات وتواصلات لها جذور ومفاهيم حاكمة...

والحياة لها أهداف أسمى من مجرد الأكل والشرب والسكن... والذرية

الانسان ذات مفردة...

الانسان ارادة تسعى نحو التحقيق... وهو فى سبيل ذلك أنشأ الأسر، وأقام المجتمعات ووحد القبائل وحدد الأوطان... وضحى بنفسه من أجل قيم ومُثل ورموز... أفنى ذاته فى تحقيق ذواتها الاعتبارية.

ذلك هو الانسان... وكل قيمة وعلم وفن وفكر... وعمل... مردّه الانسان ومُثله وقيمه.

فإذا تحول الطعام الى أقراص نتناولها...

والضوء الى موجات...

والصوت الى مؤثرات...

وتحول الانسان الى تجريدات... والمساكن الى قوالب تحشر فيها الناس حشراً... وتحولت المجتمعات الى احصائيات... والتقدم الى منحنيات...

فقد توقف النبض الانسانى... وعاد الكون الى كرّته الأولى... كهارب سالبه وموجبة... وفقد الكون وعيه وحسه... مرحه وكآبته.

فإن لم يكن... وعسى ألا يكون... فلابد للحياة من صُنّاعها ومبدعيها.

أولاء... دقات قلوبهم... رؤيا... تحّول الكيمياء الى عسل شهى والوترات الى بلبل صداح وغروب الشمس الى قصيدة... والقمر الى محبوب... تـُطوّع الأحجار وتـُليّن الحديد.

وتـُنشد ملحمة تشدوبألحانها الجاذبية... والكتل الصماء... وينادى التاريخ المكان ليبرزه فى عمرانه... ويصطف الآجر فى ايقاعات وقياسات تحسباً للقيظ... واستعطافاً.

ذلك هو الجواز القلبى للأعمال المعمارية... وتلك هى الرؤية واللمحة... وتلك هى اللغة ومفرداتها.

بقدر شفافية الرؤى... وتناغمها مع ايقاع العصر ونبض المكان... تكون العمارة الحقة ويكون المعمارى وإلا... فالبنّاء... مهما كان حرفياً مُتمكّنا.

العمارة تجريد فراغى...
العمارة علم وفن وفلسفة تنظيم الفراغ...
العمارة مصالحة بين العقل والعاطفـة...
العمارة تجسيد لاحتياج الانسان الى ملاذ وتفرد وصوفية.
العمارة رمز وشاهد عصر...
العمارة سيطرة الانسان على ظواهر الطبيعة...
العمارة محتوى كل نشاط انسانى... انتاجى... استهلاكى... روحانى... العمارة تحاصر الانسان فى وحدته... فى جماعته... فى الشارع... فى السكن فى... فى... لا يتخلص منها إلا فى الخلاء... فى الخواء... فى بيئة الحيوان.
العمارة من أكثر أنشطة الانسان احتياج الى شمول النظرة... واتساع معرفة... وتراكم خبرات حية... لأجيال وأجيال... توارث لمفاتيح الصنعة... ورمزيات حضارية لها مردود وجدانى.
وإذا لم يتوارث المجتمع هذه وتلك... نامت بداخله نوازع انسانية وجودية، وروحانية... وعاش فى فراغ تاريخى، وفقد هـويته وأصبح مسخاً... تقليدياً.
أرجوألا نكون قد فقدنا الشجاعة للاعتراف بأن هذا هوحالنا المعمارى.
إن معظم العمارة فى بلدنا أقل ما يقال عنها انها ليست عمارة على الاطلاق...
إن عندنا على أكثر تقدير مجموعة من المبانى... لا تكاد تفى احتياجاتنا الحيوانية فلا هى توفر لنا الحماية اللازمة من الجو... ولا الخصوصية.

أى لا تحمينا من الطبيعة... ولا الانسان... وهى سيئة الصنعة الى حد مزرى...
وألفاظ البناء المتداولة... متخلفة وبطيئة لا تناسب ايقاع العصر واحتياجات الكم الهائل من الطلب المُلح.
أين الأساس الذى تنبنى عليه احتياجات الانسان، من احساس بالهوية والانتماء والتصاعد الروحانى.
ونحن نفتقد الأساس... وبذلك ولذلك... ليس عندنا فن معمارى معاصر اجتماعى الصورة المتوارثة... حضارة... تلوحضارة.
والأدهى هوعدم احساسنا بالمشكلة، لا عامة ولا مختصين... رغم الشكاوى الصارخة... فهى معارك على حواشى وتفسيرات ، وتقليد مدارس سلفية أوأجنبية... كل حسب قبلته.

ولا يستطيع عبقرى مهما أوتى من موهبة وقدرة وعزم واصرار... وعمر أن ينتج عمل معمارى واحد ذوقيمة تاريخية... فالعمارة نتاج مجتمع لا أفراد.

وفى عصرنا... عصر التخصص... الأمر يحتاج الى كم هائل من العناصر البشرية والمادية والحرفية والصناعية لانجاز عمل معمارى متميز.
فأين لمجتمع مثلنا... فى ايقاع عصرنا... أن يأتى بمثل ما أتى به الأولون

والآخرون؟
وأين البيوت والمؤسسات الصناعية والحرفية؟
نـاهيك عـن الماليـة...
وأين الوعى الاجتماعى...
وأيـن الإدراك الفنـى...
وأيـن الابداع العلمـى...
تجتمع لتدفع فكرة معمارية أصيلة الى الواقع.
وأين الاحتياج الاجتماعى الواعى... الذى يعزز... حتى هذه الفكرة الأصيلة.
إنى أرى الرواد فى مجتمعنا من ضروب النبت الشيطانى... وفِـرَق الانتحـار الوجـودى.
ولقد كان الخروج عن الاجماع خطيئة... ولا يزال فى تاريخ البشـر... يعاقب مرتكبيها بالموت ... أوالتعذيب ... أوالنـبذ.
لا يسلم إلا قـلة صامـدة ... أودعتـهم الأقـدار غـرضهـا.
نحـن فى أمـسّ الحـاجـة اليـهم معمـاريـاً واجتماعيـاً.

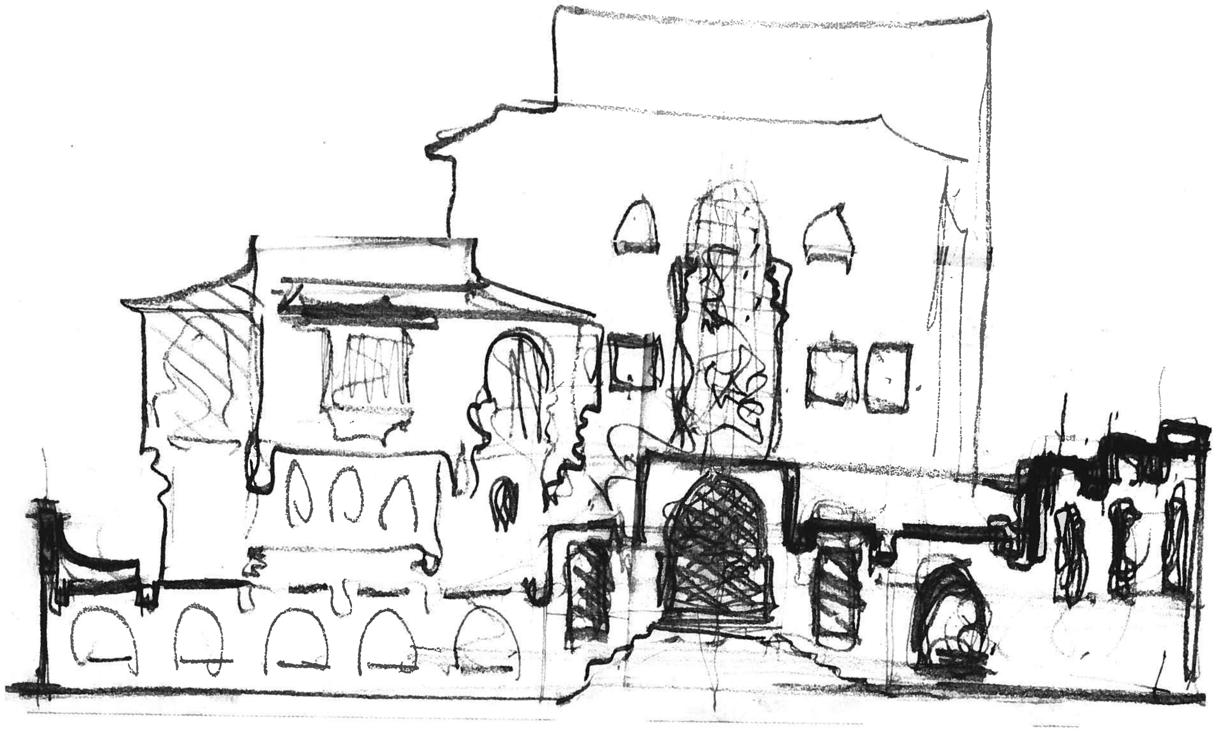

ونسيج من ثلاث خيوط
أومعادلة من ثلاث متغيرات
الوظيفة... المنشأ... الجمال.

والأصل أن يتغير التعبير المعمارى نتيجة لحوار الثلاث متغيرات بتغير الظروف والامكانيات وبفعل النشاط الانسانى الخلاق.
وقد تمر حالات يسيطر فيها أحد هذه الأبعاد أويكون أثره أكبر وأوضح.
تارة يجنح الفكر نحوأن تكون الوظيفة هى الأساس وأن توفيتها تؤدى بالمنشأ والجمال أن يتوفيا.
وتارة نرى الانشاء سيطر عند ابتكار وسائل بنائية أومواد جديدة تغزوالسوق.
وفى فترات الغليان الاجتماعى... حيث تهتز القيم وتموج الأعراف...
تطفوتعبيرات جمالية تواكب التغييرات، تارة شعبية... وتارة أصولية... وتارة عالمية.
ألا أن التفاعل العميق بين هذه الأبعاد والتنوع الشكلى الناتج... له أثر ايجابى، طالما كان الحوار يجمع بين العناصر المادية والعناصر الروحية. أما حين تتغلب العناصر المادية... فان العمارة كفن وطاقة، تخبووتنطفئ شعلتها ووهجها الاجتماعى.
وحين تجمد العناصر المادية ويخلوالملعب للعنصر الجمالى وحده... تتحول الدراما المعمارية الى أراجوز... والفكر المعمارى الى حواشى واضافات...

ألفاظاً بلا مدلول... والواقع عندنا يزخر بهذا.
فالوظيفة ثبتت عندنا لمفهوم الطبقة المتوسطة فكراً وخلقاً واقتصاداً... وأصبح نموذج اسكان عين الصيرة (الأبراج المستقلة) وهومن أوائل الاسكان الذي أنشأته الدوله... ينموعشوائياً أومخططاً من العريش الى مرسى مطروح... ومن دمياط الى أسوان ومن القاهرة الى الواحات.
ولم يتوقف المد حتى عندما وجدوا حماراً فى بلكونة بالدور الثالث.!
والطرق الإنشائية تكاد تتطابق حتى عندما يتطلب الواقع غيرها... حتى لنرى مصر تبنى المبانى ذات الطابق الواحد بنفس الطريقة التى تبنى بها المبانى ذات الأربعون طابقاً.
ولم تعفى الشدة التى سقطت من العمارة ذات الثمانية وعشرون طابقاً... الفكر الهندسى فى مصر لمحاولة فهم عدم مناسبة الحلول.
ولم يبقى فى الملعب المصرى غير المرادفات الجمالية لتعبرعن الاحتياج الانسانى الطبيعى للتنوع... حيث الحركة والتغيير من سنن الطبيعة... خاصة ونحن فى حالة تغير إجتماعى واضح فى حاجة للتعبير عنه.
فالوظيفة جامدة والتعبير عنها شكلى التنوع، والمنشأ وحدانى النظرية وحدانى التطبيق والتعبير عنه هزلى مستوحى من المنجزات الحديثة فى العالم المتطور من عمارة التجهيز والتصنيع فتمتلئ مبانينا بالخطوط الرأسية والأفقية والبروزات، والنتوءات... التى توحى كلها أنها مكونة من عناصر مجهزة ومركبة فى الموقع... على عكس الواقع.

وتبقى الرغبة فى التعبير مكبوتة فى البعد الجمالى لتتزين به المبانى... مثل الحسنة العيرة والكم الثالث فى الجاكته... شكل انفصم عن مضمون.

وماذا ننتظر من معمارى... ثقافته من الكتب الدوريات والنظريات... ووسائل اعلام... ثم بيئة حوله امتلأت ركاكة معمارية... هى محاولة أمية للنطق بلغة أجنبية؟ ويصبح الأصيل عندنا هوالمقرنص والعقد المخموس. والمعاصر عندنا خطوط بالطول والعرض، وتدور فى الأوساط المعمارية عندنا وفى معاهدنا مقولة أن العمارة فى العصر الحديث... نظراً للتطور العلمى والتكنولوجى... أصبحت علم أكثر منها فن، وإن الالمام بتقنية المبانى الحديثة تتطلب تخصصات يصعب على الفنان الحق الالمام بها أوالإنغماس فى أسرارها. ومع أتفاقنا مع الرأى القائل بالتخصصات التكنولوجية العالية فى المبانى الحديثة، فانه يجب التفرقة بين علم البناء وفن العمارة رغم إرتباطهما، فالأصل فى العمارة هى دراسة الفراغ وجمالياته. أما المبانى فهى الأغلفة التى تحتوى على هذه الفراغات... هى تقنياتها وموادها... والمرافق وتعقيداتها... والوظيفة وتوفيتها، كلها محددات وعناصر بالمبنى، وهى من صميم عمل جوقة المهندسين الذين يشكل عملهم كفاءة المبنى من عدمه.
أما الطاقة الروحية التى تشع من العمل المعمارى وتعبيراته وموحياته... فذلك هوالعمل المعمارى الذى يؤلف السمفونية الفراغية...ويقيم شواهد عصره الباقية والخالدة.

وكلما تطور العلم والتقنية... وزاد الاحتياج الى كثرة من المهندسين والمختصين... ازداد الاحتياج الى العبقرية الفنية التى تستطيع السيطرة على هذا الكم المتزايد واحتواء مختلف عناصره فى تآلف ووحدة فكر... لا يقدر عليه إلا من أودعه الزمن تلقائية الحس المرهف الذى نطلق عليه الفنان.

وهنا كان وعى اللغة باختلاف التعبير اللغوى فى الفرق بين المهندس... والمعمارى... والبناء.

وإن كان المعمارى العظيم يجمع فى قدراته كل هذه الجوانب فهوالمهندس وهوالبناء... ولكنه فوق هذا كله وأشمل... هوالمعمارى الفنان.

ولا يرتقى الى لقب المعمارى الحق... إلا كل ما كانت لديه السيطرة... وببساطة، على مختلف الجوانب العلمية والتقنية فى مجاله... فهويقرض شعراً... لبناته الرمل والزلط والحديد...

الشعر المعمارى يحوى الايقاع... الاتزان... الدراما... صدى اللحن... النسب... القياس... مناسبة الكلام لمقتضى الحال... وهوفى النهاية تعبيراً... كما فى الأدب عن البيئة والثقافة والحكم.

إن البدائى يبنى بيته... والبسطاء فى كل العالم يقيمون محتواياتهم الحضارية لتوفية احتياجاتهم، الوظيفية والروحية. بل من أقدس المنشآت... ما له السيطرة على وجدانيات الناس... بسيطة فى تكوينها وتكنولوجية انشاؤها. ولكنها مصدر وحى والهام ملايين الملايين عبر التاريخ. وتلك هى الوظيفة

الأساسية للعمارة... أن تصبح ملهمة للمجتمعات.
والمعمارى الفذ هـو الذى يستطيع ليس فقط السيطرة على كل العوامل لانتاج صرح، بل الأهم ابتكاره لنظام... والذى قد يرقى بفعل العبقرية الاجتماعية الى طراز.
فمـن خلف لنـا الطراز الفرعونية والأشوريـة واليونانية والرومانية والصينية والهندية والعربية... والحديثة؟
أهى المواهب العقلية... أهى التطورات التكنولوجية... أهو الحس الفنى... أم هى الذاتية الجماعية للمجتمعات، تتفوق منجزاتها حين تعلو... وتنحط حين تخَبـو.
ولا أعتقد أن المصريين القدماء كانوا مشغولين باستنباط معمار مصرى... ولا كان اليونانيين ولا حتى مبدعى أى حضارة... ولكن المشغولين بذلك هم أزيال الحضارات... الذين يدفعهم رد الفعل... للبحث عن ذاتيتهم المفقودة.
وعندما تشغلنا قضية الأصالة والمعاصرة... فهو اعتراف أننا لسنا من مبدعى حضارة.
والذى يشغل المبدع الحقيقى لا هـو انتاج عمارة عصرية... ولا عمارة مصرية ولكن عمارة حقيقية. ولو نفض عن نفسه غبار المحاكاه والتقليد لبرزت عمارة تلقائية مثلما برزت الفرعونية... والهندية.
والممارس الصادق لفنه يعى هذا تماماً.

والذى استوى عوده فى الفن... قد مر بكل مراحل التقليد ومحاكاة الاتجاهات وأصبح ارضاؤه لنفسه من دروب المحال... ولكنه على الأقل يرضى حين يشعر بتلقائية تبرز فى أعماله وتبدو فيها الذاتية الجماعية دون انفعال أوافتعال.

إن فرصة الابداع تزداد يوماً بعد يوم مع الالمام بكل المنجزات السابقة... والتى أباحتها ثورة المعلومات فى كافة الأنحاء... فى متناول يد كل راغب فى المعرفة وكل راهب فن.

بينما زادت أيضاً فرصة التقليد للرخيص... يزكيها جهل العامة بالمصادر والجذور.

لكل عصر وبيئة وانسان بصمته، وسوف تبدورغماً عن كل أصالة أوافتعال.

فللعلم بصمته... وللجهل... وللفنان بصمته وللمدعى.

وللبيئة المتحضرة بصمتها... وللمتخلفة... ولعصور الازدهار بصمتها... وكذلك المنحطة.

والأمل كل الأمل أن نحاول كالطفل ارتياد الجديد والحياة على بساط الخيال، أكبر قدر ممكن من العمر.

إن حب الاستطلاع أخطر قوى الكون... لقد خرقت ناموس الطبيعة، فأبدعت وأضافت. كل ما فى الأرض من غريب هومن فعل قوة الاستطلاع وابداعها.

وبقدر براءة الطفل يكون تساؤله واستطلاعه.

والمجتمعات المتقادمة لها حلول مسبقة عتيقة عن كل تساؤلنا الطفولى... حتى يصلوا بالأطفال الى شيخوخة وجمود مبكر... يقتلون فيهم كل ابداع.

بذلك نجد أسرنا... وتجمعاتنا... ومؤسساتنا صدى لرأى إمام... ومريديه... حتى موسيقانا... أصدق تعبير عن وجداننا... هى مونولوج... وكورس أوعلى حد تعبيرنا صيّيت وبطانة.

بينما تطورت الموسيقى منذ قرون لتكون حوار قطبين... فى تآلف وتناقض مثل كهارب السديم السالبة والموجبة. وأخشى أن نكون قد استكنّا مع الكهارب المتعادلة الشحنة... لاشرقية ولا غربية.

إن كل حضارة هى تفسير جديد وتوليفة جديدة لحقيقة الكون، ببعديه السالب والموجب.

هى بحث عن توازن بيئى بعد أن اختل بحرية الانسان.

تلك الحرية الرافضة دائماً، الطارحة لاشكاليات جديدة، والفكر الحديث ينحوبالمجتمع الانسانى كطارح للاشكاليات بداية... محاولاً حلها ثانية.

كلما أبدعت العقول حلولاً، أشعّت القرائح تساؤلات جديدة.

وكما يقولون أن العالم هوالمعرفة به... وقد وصل وعى العارفين الى أبعاد كونية يعيش الانسان على ذرة من ذراها... ولا يقبل المتفائل العاقل أن يحصر الانسان قدره فى هذا النطاق.

وعليه أن يطرح ويحمل تساؤلات ومشاكل وانجازات حتى يمتد فى الزمن الى آفاق غير مستوعبة فى عقل العصر.

وإنا لنرى أنفسنا قوارض أرضية أسكرها جهلها.

الوظيفة... المنشأ... المواد... الحرف الصناعية...
كلها وسائط... كالوسيط الروحى... الذى يصل طاقة الانسان الروحية بالكون... يسبح خياله بين أرجائه يغيب عنه الزمان والمكان وينعدم الوزن. فيعيش اللحظة الخالدة... وكأنها الدهر... فيجسدها فى قصيدة... فى رمز... ومن لم يعش هذه اللحظات... لم يقرض شعراً ولم ينتج فناً، ولم ينطلق خياله من عقال الوراثة والبيئة... ليخرج من منطق ضيّق الى رحاب أوسع.
إن مشكلة المبتكر... نفسه... مبتكراته... تحوم حوله كأشباح تتحول الى هواجس يقينية... تمنعه من الخروج عن حدودها.
لم يسلم مبدع من هذه المحنة... فقط مشوار أطول... ودوامات أبرح.

ذو أبعاد متعددة وعناصر متشعبة، والأصل أن يحس الانسان بالكون كما هو، متعدد الأبعاد والأشكال والألوان... والحركة.
وقد دأبت المدارس القديمة على بدء تدريس الأشكال فى بعدين والألوان بالأبيض والأسود، والأشياء فى سكون... وهى طريقة معكوسة، أن أبدأ فى دراسة الخاص لا العام. والأصوب أن أبدأ من الأشياء كما يحسها الطفل... بالأجسام والألوان والدينامية... ثم اختصر واختزل الى تجريدات وحالات خاصة.

ولا تسلم المدارس المعمارية من تلك البدع، وهى حصر الخيال فى بعدين والبصر فى لونين وقدرة التحليل فى السكون. والمفروض أن تتطور الدراسة بعد ذلك وتنمو معها مدركات الدارس الى الشكل واللون والحركة، ولكن التقادم وكسل العقل... وضعف الموهبة غالباً ما تجمِّد الانسان عند المراحل الأولى... ليظل المعماريون يحاورون أنفسهم مع الورقة والقلم فى البعدين وفى جماليات السيطرة على المسطحات الأفقية... ثم ينتقلون بعد ذلك الى جماليات المسطحات الرأسية.
ليت المعمارى يبدأ دراسته من التكوينات الطبيعية... الخلايا كيف تتشكل من وحدات نمطية... والمنشأ العضوى كيف يتماسك بالهياكل العظمية... والقنوات والشرايين والرئات كيف تعمل وتغذى المحتوى العضوى.

ليت هذا الانفصام بين العمارة والتخطيط أن ينتهى، لنبدأ فى تدريب العمرانى من الواقع الى الفكره الى الواقع الى الفكرة... ومن المُجسد الى المُجرد... وليس من تجريدات هندسية الى زخرفة حسية.
كما لا يمكن بدء تعليم الطفل من النظريات العلمية ومنجزات السوالف... كذلك لا يمكن تدريب المعمارى بالبدء بالأعمال الخالدة والكلاسيكيات... بل يجب أن يبدأ تدريبه من رؤية البيئة الطبيعية والتعمق فى أسبابها وجمالياتها.

إن أعظم انشائى فى التاريخ... العنكبوت... لا أعتقد أن معمارىّ العالم قد تدارسوا أعماله إلا حديثاً.
وكيف أبدأ بتدارس العامود الأيونى ونسبه بدلاً من أن أبدأ بتأمل ورقة الشجرة؟
ومعـروف فى المدارس المعمارية... المجهود الكبير الذى يركز على الاخراج والابراز والابهار بالخط والظل واللون والمنظور من زوايا فيها مبالغة وأبراز لعناصر معينة... واخفـاء نقط الضعف بالشجر والتظليل... كأن مهمة المعمارى الأساسية هى اقناع الزبون... بدلاً من تركيز الدراسة على تنمية الحس الفراغى والبنائى عند الدارسين.

ولقد تخلفت العمارة كثيراً عندما انفصل المعمارى عن الانشائى... وكلاهما عن البنّاء. وانحصر المعمارى فى جماليات خطوط وأحاسيس ليطلب من الانشائى أن يتحايل لتحقيق الشكل الخالى من المنطق ومن البنَّاء أساليب ملتوية لابراز شكل خال من المضمون.

وكأن جماليات الشكل فى خلوه من المنطق، وتحميله أساليب فوق الطاقة. قد لا يكون العلاج فى عصر التخصص بالغائه... ولكن بالقاعدة العريضة من الثقافة العلمية العامة وتدريب الفطرة تدريباً يؤدى بها الى تلقائية التصرف السليم، ليجمع عمل المعمارى والانشائى والبنَّاء حول التصرفات الطبيعية والمنطقية والسلسة.

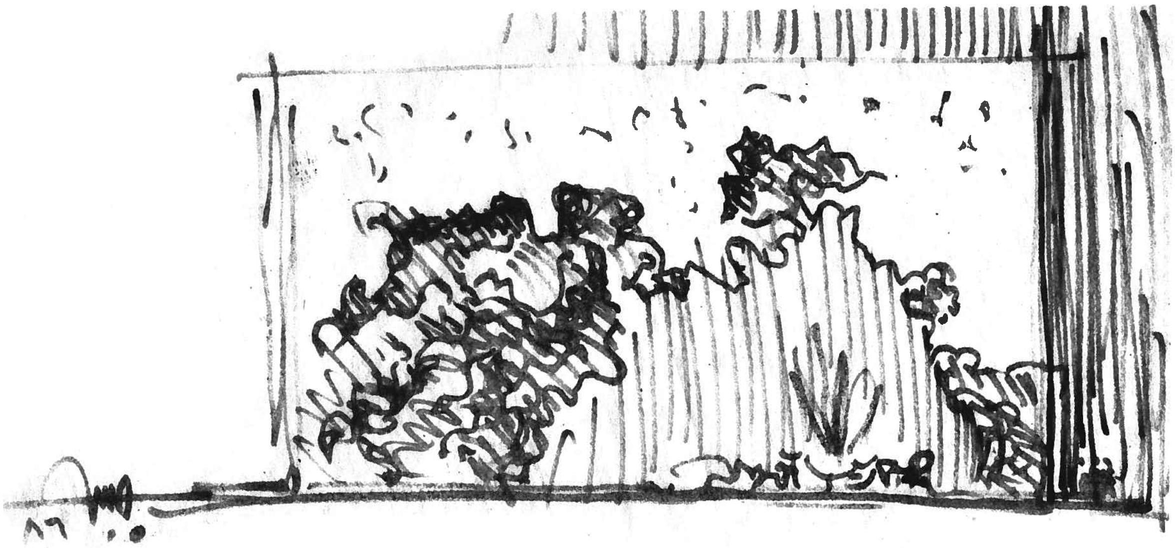

منحنى المسيرة الانسانية يبدأ بضرورة التواجد حيث تكون الأولوية لضمان البقاء.
وتكون العمارة البدائية تعبيراً عن الحاجة لحماية الوجود الانسانى من البيئة والفضول. وتتطور المجتمعات وتتعقد وتنشأ الحاجة الى تواؤم بين الرغبات المتعارضة، فتكون التنظيمات والمراتب الاقتصادية... والعمارة المناسبة.
وعندما تمتلئ البطون... تبرز الحاجة الانسانية الى التمايز والتقدير. فتبدأ العمارة بالتنوع والتزين... ثم يزيد الكم... تتعقد العلاقات وتتشعب فيصبح التنظيم الاجتماعى ضرورة... وتلحق العمارة وتصبح واجهة للواقع الرابض خلفها.
فاذا أحكم المجتمع السيطرة على مقدراته الاقتصادية... وتناغمت مؤسساته الاجتماعية، طلب الخلـود... وهومطلب غريزة انسانية طبيعية نابعة من وعيه بمرحلـّتيه فى الحياه. فكانت المنجزات الخالدة وكانت تلك الصرح المعمارية الشاهدة على تفوق الانسان.

تلك هى مراحل احتياجات الانسان فى مسيرته، التواجد... التقدير... الخلود... والعمارة المعّبرة عن كل حالة تمر بالمجتمعات... وتتوالى على الشعوب والأزمنة... فلا عجب من تزامن التعبيرات المختلفة... فى مختلف البقاع.

ما الفكرة... الفكرة هى الحيلة التى يخرج بها العقل... لتوفيه رغبة... نابعة من ارادة الحياة... التى هى أصل وجودنا.
أنا أولاً انسان... ولد فى مكان... وعاش فى زمان... ترعرعت فيه ارادة نابعة من تفاعل هذه المعطيت الثلاث ومحدداتها... تتغير هذه الارادة بتغير المعطيات... كما تتغير بحدة التفاعل.
وتبعاً لتنوع الارادات... تتنوع الرغبات وتنشأ الأفكار المختلفة.
فأنشأ الانسان رعى الغنم... وزرع السنبلة... وصنع العجلة... وعرف العدالة والحرية... وأبدع الموسيقى... والشعر... والعمارة.
بذلك كانت الفكرة المعمارية عند المصريين القدماء وغيرها عند الصينيين... تخالفها عند المعاصرين.
ونراها حالياً عند الأمريكيين مغايرة لما عند الانجليز... غيرها عند اليابانيين.
ورغماً عن الروابط القوية التى تزكيها ثورة المعلومات فى عصرنا الراهن... عندما تقلص البُعد الزمنى فقرب المكان... ووصل الانسان.
إلا أن الجذور مازالت قائمة... والمناخ مازال مختلفاً... والمجتمعات لا تعيش نفس الزمن رغم ما تزعمه التقويمات المعلقة على الجدران.

بذلك تكون الأفكار المجدية... والتعبيرات الصادقة... متباينة.
فقوة الجاذبية واحدة... وقوانين الحركة واحدة... وقانون الحرارة واحد...

ولكن التعبيرات المعمارية مختلفة فى تغلبها على الجاذبية ، ومقاومتها للحركة ومعالجتها للحرارة.

فالعلم الواحد، لا يعفى المعمارى من ضرورة مجابهة احتياجاته الثقافية والـوجدانية بفكر ثاقب أصيل... وإلا أصبحت عمارته مسخاً اجتماعياً... أوقومياً... أوتاريخياً.

الوظيفية... العضوية... التعبيرية... العالمية... اتجاهات معمارية نشأ جيلنا فى كنفها.
وقد اتجه معظم معماريى العالم الى تقليد للعالمية... لما يبدوفى الظاهر من سهولة تقليد اتجاهها، بينما ظلت قلة مبدعة تتمسك باتجاهها المختلف، وقد أدى كم مقلدى العالمية الى اعتبار العالمية " هوالطراز المعمارى الحديث ".
وكانت النتيجة الحتمية... استنزاف امكانيات وأشكال هذا المسمى طرازا بل وهتك قيمه... على أيدى كثرة تمارس العمارة دون موهبة، أوقدرة للنفاذ وراء الأشكال لمضامينها.
وقد قامت العالمية أصلاً لنقد فكرة طراز وللتمسك بالشكل النابع من التطور التكنولوجى... ولقد سار روادها على درب التكنولوجيا بجرأة وحساسية.
وكان لهم الغلبة... سواء فى الواقع أوفى المدارس المعمارية... على امتداد العالم.
حتى أتت الكثرة المقلدة... بوفرة معمارية مبتذلة فى كافة الأنحاء... وبدأ الأمر وكأنه لايحتاج الى معماريين... لبناء صرح ضخمة... لا يميزها إلا خطوط بالطول وخطوط بالعرض يطلقون عليها... الطرازالحديث، وهكـذا... كما يحدث فى كل بؤرات التحضر... توئد السطحية العمق... ويأكل التخلف الابداع... فيضمر المبدعون وتنام الحضارات.
وعلى أثر انتحار ذلك المسمى " بالطراز العالمى الحديث " قام معماريوالطليعة الجديدة بالاتجاه الملقب... "مـا بعـد الحـداثـة ".

وقد تفرغ ما بعد الحداثة... أوتمخضت شهادة وفاة الطراز الحديث... عن أبناء شرعيين وأبناء غير شرعيين.

وأول وأسهل الدروب يسلكها الوارثون... فى كل العصور... العودة الى الماضى... الانتحار فى أفكار السلف... وقد رأينا مصير محاولات الجدة. ولكن لا يعدم الأمر بعض الحق فى هذا الاتجاه.
فقد تجاهل معماريو العالم تجارب الماضى ومنجزاته المعمارية الرائعة بقوة دفع أفكار عصر الصناعة... وانتصار العلم والتكنولوجيا... فكان أن وجـّه السلفيون أنظارنا، الى مافى التراث المعمارى من كنوز يلزم الكشف عنها وأستقراء مدلولاتها وأمكانياتها.

وذهب وارثون آخرون الى كل تشكيل جديد... ما دامت المعضلة والبدعة الجديدة... هى الخروج عن العالمية... مهما تناقض التشكيل مع المضمون أو المنطق.
وهناك ابن شرعى للعالمية المعمارية... المبنية على التكنولوجيا... وهو الملقب "بالتقنية العالية" ويمثل هذا الاتجاه... التطرف الى آخر مدى تسمح به التكنولوجيا... ضارباً بعرض الحائط محفوظات الكتاتيب المعمارية التى يردد فيها الصبية... مقولات الشيوخ، والتى تشكل... دون وعى... وجدان الجماهير.

ولقد أتيح لهذا الاتجاه فرص معمارية بارزة فى أماكن متعددة من العالم فأثبت براعة عصرية... حيث يعتمد على تكنولوجيا فائقة الاتقان... فى عصر يتطلع فيه الانسان الى الفضاء وارتياده... المعتمد على العلم والتكنولوجيا والاتقان الفائق.

إلا أن تناقض مبانى التقنية العالية مع البيئة المحيطة بها... شديد الصدمة للوجدان العـام فالناس تقتنع بالعلم... وتنبهر بمنجزاته... أما " صندوق النذور الوجدانى... فليس فى متناول عقلها الجماعى.

وعلى الزمن خوض الحرب الدائرة... وعلى القـدر تسجيل النتائج.

تركب العمارة سفينة العصر...
وتشهد الحوار بين ركابها... فى عرض البحر... يتراخى الكل عن ملاحقة الزمن... يستلقون على ظهورهم... يتثاءبون... يتيقظون لقرب انتهاء الرحلة... وهم لم يدركوا بعد... أين تأخذهم الأقدار... منهم من يرى الوجود فى الاستغراق... ومنهم من يراه فى التنزه، تلتقط العمارة الرسالة... يستميت معماريون فى منتهى التعبير عن الوجود... ويتصوف آخرون فى ابراز العدم... نعيش فتحوطنا معالم عمرانية تملؤنا صخباً... وأخرى لا نكاد نلمحها من فرط شفافيتها.

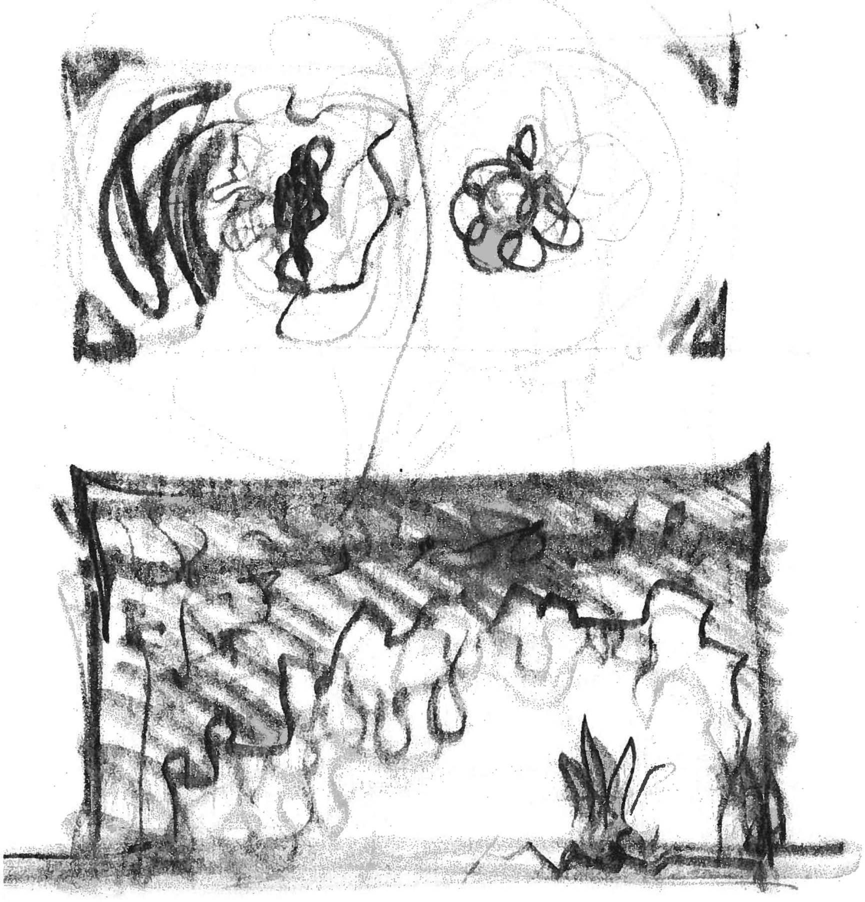

اعتذار: لابد لى من الاعتذار، أبدأ به حديثى عما شطح بـه خيالى...
فلقد عانيت كثيراً منه ومن شطحاته...
فما دأب الناس منذ وعيت وجودى على التهكم من قدرتى على الخيال.
ورغم أن فى حياتى العملية، ما أبرأ خيالى من تهمة الخيال... عندما حققت من شطحاته ما لم يكن يتوقعه خيال الكثيرين.
ولكننى فى هذه المرة أوثر البدء بالاعتذار للأجيال السابقة... لما تصدمه هذه الخيالات لعاداتهم الفكرية المتورثة وأعتذر للأجيال القادمة... مما تلحقه بهم أمثال هـذه الشطحات من معانـاة لازمـة لانجازهـا وتحقيقها.
كان لى أخ عزيز وصديق صدوق ورفيق حياة... سلك طريق العلم.
ولـى صديق حميـم... سـار علـى درب الفـن.
وكنت كعادتى أضع نفسى بين المطرقة والسندان...
حيث أخـذت لنفسى طريقـاً بـين العـلم والفـن.
فآخذ من هـذا ومن هذا... ما يطرق عقلى ليشطح خيالى...
وقد آثر أخى أن يتركنا نواصل معاناة الخلق وغربته وحدنا.
وتذكرت كلمته التى طالما طنطنت فى أذنى كثيراً، عندما قال... إن العالم يمكن ادراكه بصورة أدق كمجال واحد مليئ بالتوترات...
فهذا توتر على شكل جبل... وهذه سحابة... وهذا انسان... ولكنها فى ترابطها... مجال واحد.

وراعنى أن نملا العالم فى مهنتنا... مهنة العمارة... من توترات... توتر الانسان قبل أن توتر العالم.
أذكر اننى ما كلفت بتصميم وذهبت لزيارة الموقع... حتى أجد فى نفسى رغبة جامحة لترك الطبيعة على حالها... فهذا خير ما يمكن عمله.
طالما أجهدت فكرى وخيالى لاحداث أدنى اقلاق ممكن للطبيعة... بلا طائل.
وعندما كانت تأخذ فكرتى طريقها الى التحقيق... يروعنى كمية الشبكات والتوصيلات التى نملأ بها الدنيا لتوصيل القوة الكهربية... مثلاً... من محطة مركزية... مارة بتعقيدات لا نهاية لها... لنصل الى كل كما يقولون... خرم ابرة فى محتوياتنا الحضارية.

لما كل هذا؟

أليس فى تطورنا العلمى من الامكانيات... ما يمكننا من الاستغناء عن هذه الخزعبلات.
وما أتصور الموضوع يحتاج منا الى أكثر من خلية مشحونة تعطينا الطاقة اللازمة... لفترة من الزمن ليست بالقصيرة؟

كل هذه التأملات والخبرات تسبب لى آلاماً ليست بالهينة... وأشعر دائماً اننى

مشترك فى عزف لحن... حسب الله... بينما يملؤنى الحنين الى بيتهوفن.
هذه أمثلة لا تكفى للتعبير عن الفجوة المهولة بين مفهومى للعمارة النابع من الامكانيات الخلاقة التى يمنحها القرن العشرون وبين واقع تصرفاتنا المعمارية.

يقولون الانسان يفكر بدافع من عقله وبتصرف بوحى من لا شعوره.
ولكننا فى مهنتنا نحلم بقدرة خيالنا... بينما نتصرف برغبة كسلنا العقلى.
دعونا نتأمل الكون حولنا... كيف تسبح الأرض فى فلكها؟
تلك الكتلة الجبارة... بقياس الاحساس الانسانى.
وكيف تسير السحابة الى مسارها حاملة ما تحمل من أثقال؟

ونحن فى مجال الهندسة ينوء عقلنا بنظريات لا حصر لها لمحاولة رفع سقف وتحميل الأرض بمنشآتنا... بينما يحمل الأرض والسحابة توازن المجالات.
أنى أتصور نفسى جالس على البحر... أستمتع بالسحابة والموجه والنسيم، تلفعنى الشمس فأتقيها، بمظلة تمنع عنى القيظ... وتحجب عنى زرقة السماء.
إن كل ماأريد منعه عنى هوالأشعة تحت الحمراء، وليست زرقة السماء.
هل أستطيع منع الأشعة تحت الحمراء بانشاء مجال بينى وبين الشمس يعكس هذه الأشعة دون حجب المنظر.
أتصورنى أحمل معى جهازاً فى جيبى... حيث تقف بى رغبتى فى أى مكان أستريح اليه... أنشئ حولى مجال... أتحكم به فى الظروف المحيطة بى...

فأحجب عنى كل ما أريد من درجة حرارة ورطوبة وأشعة، وعيون الفضولين... وينفذ من خلاله كل ما أرغبه من منظر وأشعة وعطر... وعندما أملّ... يرافقنى جهازى الى حيث المستقر الجيد.
بل إنى أستطيع أن أتحكم فى إرتفاع وإنخفاض وجودى بخلق مجال يحملنى الى حيث الدرجة التى أرغبها وليست الطائرة على العموم، إلا وسيلة مادية يحملها المجال الجوى الى حيث نرغب وليست إلا خطوة نفسية وعملية تستبدل المادة مجالاً... وهما كما نعلم مثل وجهى العملة - حتى يصبح انتقال الانسان وحركته بفعل توازن المجالات ممكن، امكانية تحرك الأرض والقمر... والمريخ.

إن رغبة الانسان فى الانطلاق الى آفاق الكون الفسيح... لابد وأن توازيها مع الزمن قدرته على تحقيقه... وذلك بمغالبة كسله العقلى والتغلب الدائم على حنين العودة الأزلى... المستقر بأعماقه.
لقد عبر الانسان عن هذه الرغبة فى أساطير وصورها فى معتقدات وبدأ فعلاً فى اختراق حاجز المادة النفسى بتفجير الطاقة وتسخير قوى الطبيعة لهطول المطر... وانتقال الصوت والضوء.
لقد حققت الطاقة النفسية والروحية منجزات معجزة بفعل الدافع العقائدى... فحطم بها الانسان أصناماً شتى... أهمها وأخطرها أصنامه العقائدية والفكرية نفسها... التى دفعت تطوره قفزات مدهشة.

وبقى عليه أن يحطم أصنامه العلمية المتمكنة من عقل الانسان الحديث... ليعايش امكانيات عصره بلا خجل ولا وجل.

إن الخجل... وهومن وسائل الدفاع الغريزى عن الثوابت الحضارية التى حققها الانسان... يصبح رادعاً ضد التطور اذا لم تلاحق نفسية الانسان... نموه العقلى.
هذه الغرائز الحامية للنفس البشرية من فنائها... بفعل الطاقة العقلية المتفجرة فيه... تصل فى قسوتها لحد فنائه المعنوى... الانسانى... بفعل تحجرها مع الزمن... لتأصيل الحضارات القديمة.

الطائر يبنى عشّه... العنكبوت ينشئ نسيجه... النحل يكوّن خلاياه...
لكلٍ غريزة تهديه وبيئة تعطيه...
فكيف بالانسان...؟!
أله غريزة تنير سبيله...
وطبيعة ترشده لاحتياجه...؟
هومثل ما فى الكون... محكوم بقوانينه ومعطياته... وحدوده وايقاعاته... بيد أن ميزته ومحنته... خروجه على النمط الواحد فى التصرف، وحريته فى الاختيار والتعبير والفعل.
وهوبذلك ليس محكوماً بغرائز ثابتة موجّهة بضرورة قاطعة... بل متطورة بتطور الأحداث والخبرات... تنصهر فى وجدانه، وتترسب طبقات فوق طبقات نطلق عليها ثقافية... يجابه أزمانا تتفاعل الطبقات مع بيئته فتنسبك حضارات. وتخمد أزماناً... فتندثر فى غيبة عن الوعى، ونضب فى الابداع... وتخلّف عن العصر، وغفلة عما يتيحه.
وإذا عرجنا على السكن... وهى ثانى مطلب من أساسيات الوجود... بعد الطعام... شاهدنا الانسان متغير كيانه... متقلبة بيئته... مطالَب بنشاط عقلى لحل المعضلة.
بالأمس كانت معضلة الكيف... حين البراح... والفراغ، واليوم... انضم الكم... بعد ما ضاق المكان وتسارع الزمان... ولهث الانسان.

إن اشكالية عصرنا البنائية... لأيهما السبق... العرض أم الطلب.
اشكالية محمّـلة باحتياج كمى، واحتياج كيفى.
اشكاليـة تتطلب بـالحاح... الكفاية الانتاجية.
(فعندمـا يتمـدد المكان... يتباطئ الزمن)
(وعندما ينحصر المكان... يتلاحق الزمن)
فى البدء كان الكهف... استكانـة وقبولاً.
ثم ظهر الكوخ... خطوة واضافة انسانية... ثم كان الحجر، والزاوية القائمة...
ثم الطوبة... خطوة جبارة... فقد ابتكر الانسان النمط... وتوحيد القياس.
وما زلنا فى هذا الاتجاه نسير... فقط اختلاف القياس والوسائل...
والوسائط، أصبح الانتاج جماعى... فريق... نمطية... تقسيم العمل وتنظيمه
والتصميم... يتبع... ثم يقـود.

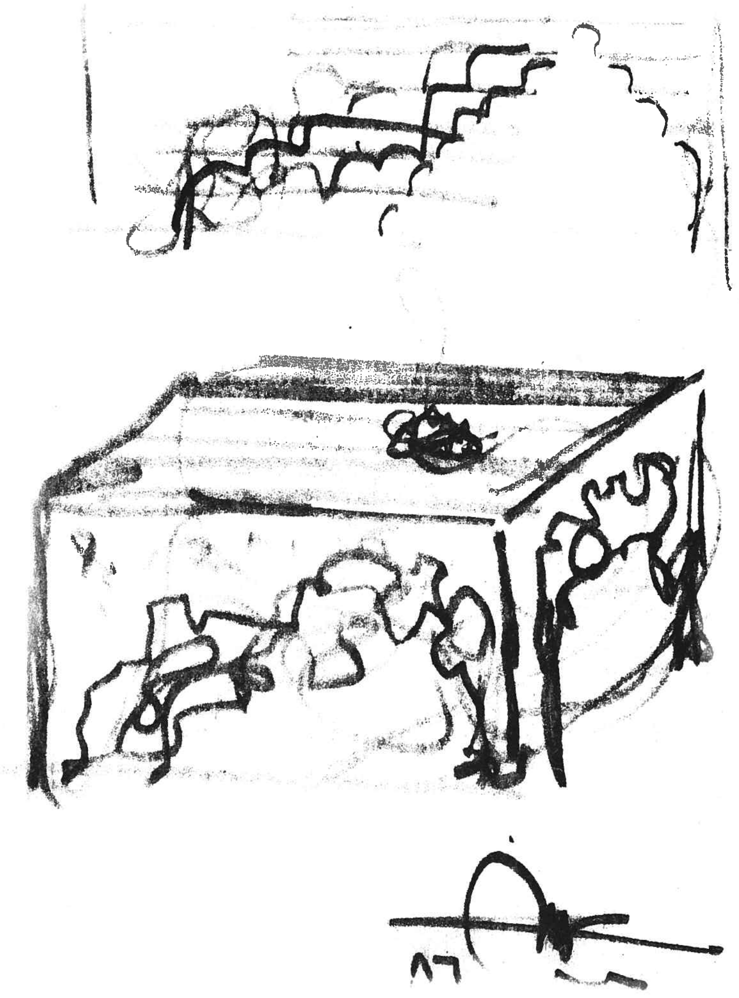
٨٦

ونحن فى مصر نواجه محنة فى مستوى الأداء المعمارى الفنى... بصورة غريبة عن الواقع الحضارى المصرى... وتـراثه.

نحن فى مرحلة انتقال بين الحرفـية والصناعة.
والمجتمع بشقيه... النظرى والعلمى... يُـبحر فى سفينة بين الجزيرتين... فلا حرفى متميز قادر على تنفيذ تصميم بُنى على تقنية حرفية... ولا تقنية تصميمة صناعية متوفرة... تقوم بها بيوت الصناعة... إن وجدت!
وهى حـال لا يمكن أن يلام فيها جانب دون آخر... فهى مسئولية التصميم مثل ما هى مسئولية التنفيذ... وعلى الاثنين دفع السفينة لتصل الى بر التجهيز والتصنيع... وهمـا سمـة العصر... باحتياجه الكمى والكيفى.
وإن كان العالم المتحضر... يحترم علامة " صُـنع باليـد " فهى مرحلة من الترف... جد الاحتياج اليها بعد أن مـلّ الاتقان الفائق " لصُـنع الآلـة "، حيث هيمنت على عصر التجهيز كلمة مؤداها " أن كل ّ مالمسته الـيد قلت كفاءته " فنحن فى عـصر الروبوت والكومبيوتر الى حد الايمان بهما.
والاتجاهات الفنية والمعمارية الحديثة وليدة هذه التقنية العالية، وهى تتحدى حتى وجدانيات معايشى هذه الحضارة، ولا تجد قبولاً إلا من صفوة مستقبلية... من الجيل الجديد... الذى رضع أفكار المعاصرة.

إن اللغة المعمارية المتداولة فى مصر... لغة حرفية مهنياً ووجدانياً... وهى منقرضة... مهما بدا من رد الفعل المعاكس لاتجاهات التقنية العالية والتجهيز.

اننى أدعو المدارس المعمارية الى اعداد الأجيال الجديدة لعالم تجهيز وتصنيع المبانى... إنه الاحتياج... وليست نزوة أوموضة... الاحتياج الى الارتقاء والارتفاع بمعدل المعروض من المبانى فى مقابل الطلب المتزايد كمّا حالياً... والذى نأمل ونسعى الى أن يتزايد كيفاً بارتفاع المستوى الحضارى للمجتمع.
إن الاتجاهات المعاصرة... هى بلا شك... تتحدى... وتتنافى مع وجدانيات معظم الممارسين للمهنة... ربما لحد الكفر.
لكننا نأمل أن لا يعدم الواقع... جماعة تؤمن بالأجيال الجديدة... واحتياجها وقبولها لاشكالية عصرها.
جماعة تمد يداً لهذه الأجيال... تساعدهم على تخطى جيلنا ومنجزاته... يداً متفائلة... واعية لضرورة التطور... لقدر الانسان ومحنته... يولد... ويبدع... ويفنى...
وكذلك أحلامه... وأفكاره... ومنجزاته.

إن كان لهذا العصر ميزة... فهى التنوع!
ومعاصروه الحقيقيون يعيشون هذا التنوع ويحبونه...
ويفرحوا بمنجزاتهم... وبما يخالفها... مادامت أصيلة.
ومن يدرى... ربما يدرك من يأتى بعدنا كم كنا حبيسى قالب مُحكم لا نرى كنهه... ونتصور اختلافاتنا البيّنة.
على الأقل نحن نستمتع باختلافنا ونطريه، بعد أن كانوا يتقاتلون لاختلافهم.

قد يتبادر للذهن أن التنوع وحرية التصميم تقيدها النمطية والنظام. بينما كل ما فى هذا الكون... على حد علمنا... يتكون من شحنة سالبة، وشحنة موجبة... وهونمط عام تخضع له كل الأشياء.

ولم يمنع هذا النمط أى تنوع أووفرة فى الأشكال أوالأنواع أوالألوان. ولم يسبب هذا النظام أية رتابة أوملل.

والعقل البشرى نفسه يقوم بالتحليل والاختيار والقرار، من خلال نمط القبول والرفض... أوجوازالمرور والمنع.

فليس لنا بعد ذلك أن ننتقد أوننتقص من امكـانية النمطية وحدودها.

الانسان يحتاج فى أى مجال الى دراية تسمح له بممارسة هذا المجال... عن علم وخبرة.
ولوكان العلم يكفيه... لكانت قراءة كتب التشريح تكفى الطبيب لاجراء أعقد العمليات الجراحية.
ولكن العلم والممارسة... أى الخبرة... هما الشرطان اللازمان لتكوين الحساسية والبصيرة المهنية... الواجبة للأداء الجيد.
والعمارة مهنة عملية... فالفكر غير القابل للتحقيق... لا يعتبر فكراً معمارياً.
عندما تواجه الانسان معضلة يهمّ بحلها... ويأتى آخر فتواجهه نفس المعضلة فيهمّ بحلها... واحد بعد واحد... هذا ما يقوم به الانسان العادى.
أما المُصمم... فهومن تواجهّه معضلة فيبتكر نمطاً لحلها... ليأتى من بعده فيطبق النمط.
والخروج من المعضلة بحل... هذا أمر سهل تستطيعه بعض الحيوانات... أما الخروج من المعضلة بابتكار أنماط... فذلك هوالانسان.

إن النظرية العلمية نمـط
والفكرة الفلسفيـة نمـط
والـرؤية الفنيـة نمط
والـلـغـة نـمـط
وكل عمل هندسى فذ نمط
وكـل حضـارة نمـط
وبدون أنماط لا تكون حضارة ولا يكون مجتمع... ولا يكون تقدم.
ولكل نمط قدر من المرونة... بدون المرونة لا يستوعب النمط ظروف أبرح،
ولا يستطيع التعبير عن تنوع واختلاف طبيعى... وانسانى.

وقد استوعب السالب والموجب كل الظواهر المختلفة... فى الطبيعة.
وبقدر مرونة النمط يكون تواؤمه مع منطق الكون واستمراره، وانتشاره...
والعصر الحديث هويّـته الحوار بين الأنماط المحلية... بحثـاً عن نمط عالمى.
أما النمط العالمى... فهومحاولة مستميتة للسيطرة على الزمن... فى التعاملات والمنجزات وتوفية الحاجات... والوفرة المؤدية الى انقاص ساعات العمـل... وزيادة ساعات الفراغ، فيزيد التـأمـل... والفكر... وابتكار الأنماط... فتزدهر الحضارة.

ومعضلة المُصمم المعماري... وهمه... حرية فى الفكر... واحكام فى التنفيذ.
حرية الفكر... يتحلى بها المُصمم الذى أوصلته الخبرة الى السيطرة على عناصر التصميم... فلا تُشكل له محدوديات... بل هى القدرة على فتح دروب متعددة من الابداعات.

واحكام التنفيذ... هو السيطرة على العوامل الاقتصادية والتكنولوجية... والزمنية... فى معزوفة متآلفة... بُنيت على نمطية الايقاع ومناسبته.

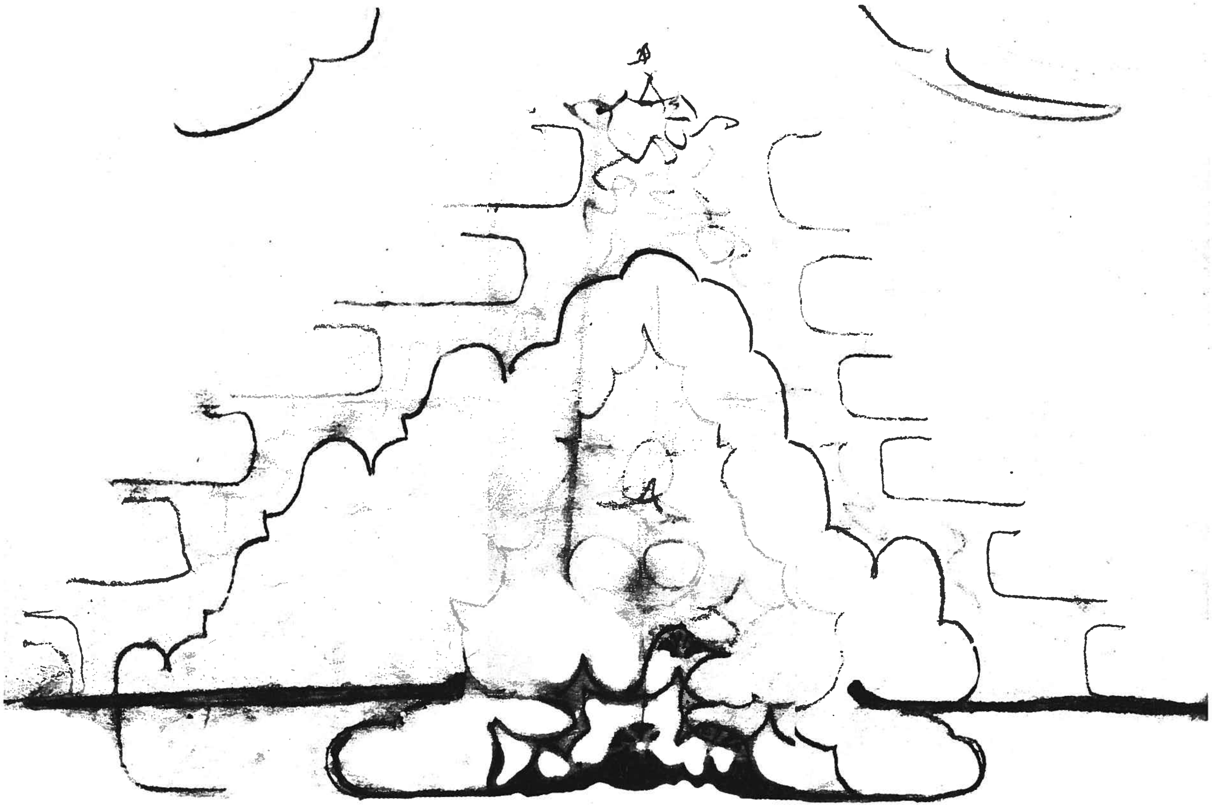

تراودنى فكرة منشؤها التاريخ...
إن القادمون بعدنا... سوف يقيّمون أعمالنا... فيجدون تآلفاً بينها لا نراه... فربما تكون خلافاتنا الفكرية والعقائدية... بل وانجازاتنا من التقارب الذى يجعل الرؤى البعيدة عن ملامحها... أقرب لنظرتنا الى العصر الفرعونى... أوالرومانى، تجمعه وحدة القالب العصرى أكثر مما تفرقه الخلافات الـذاتية.
وعمرنا الانتاجى قد واكب تغيرات حدثت فى الفكر والواقع، لم نكن نتصور قدرتنا على استيعابها.
فقد تغير الصراع فى العالم، من صراع أيديولوجى الى تكنولوجى، وأصبح النافخون فى أبواق الأيديولوجيات مثلهم كمثل الشعراء يحـمّسون حملة السيوف فى الصراعات القديمة.
فالانفعالات الشخصية أوالجماعية لا تحسم الصراعات مثلما يحسمها زر فى جهاز اطلاق الصواريخ.
وانفعالات شعائر قطع أحجار من الجبل لا تقيم معابد، بالقدرة والدقة التى يؤيدها روبوت (انسان آلى) فى عصرنا الراهن.

وفى الفن تتابعت علينا التأثيرية والتكعيبية والسريالية والتجريدية والشعبية.
وفى العمارة امتلكتنا الكلاسيكية ثم العالمية أحقاباً... ثم أطلت علينا... أولاً برفق... ثم ملأت الدنيا... منجزات ما بعد الحديث والتكنولوجيا العالية والتفكيكية.

وتفجـرت اتجاهـات لا يمكن حصرهـا، تداهم وجدانياتنا التى كانت قـد تيقنت بالوظيفية والتشريحية، وعبدت منجزات الآلـة.

لقد رضع جيلنا فكراً استقطب فى عشرينات قرننا العشرون... مؤداه أن الفن زائل لا محالة... وقد أصابه التقدم العلمى فى مقتل... وأن العقل قـد سيطر على العواطف.

وأن الحكيم من حكـّم عقله... وكبّـل عواطفه، وعاش هنيئاً كالحاسب، حلولاً واحدة للمشاكل المتكررة، بتنا وأصبحنا على ملل وجمود وتحجر كاد يفقدنا انسانيتنا... إلا قلة افلتت من هذا.

وخدعنا أنفسنا بحلول نراها منطقية، تخفى فى طياتها جذور عاطفية ودفائن وجدانية.

طالما أجهدنا أنفسنا فى حلول عاطفية يتوارى خلفها ضنى عقلى لتبريرها، حتى أيقظتنا طفولة كامنة فى انسانيتنا... نبهتنا أن العقل... بغلالته الموضوعية لا يستر ذاتية فكرنا وفعلنا ورغباتنا، واستمتاعنا بنبض واقعنا... المستمد من النبض الكونى الثرى الذى يحكمنا.

فأفقنا على تراث بشرى ممتد زاخر ثرى... ننهل منه... وقد كنا قد عمينا عنه... نصف قرن أويزيد.

عفى الله عن المذاهب التى أسكرتنا فى غفوتنا، وزينت لنا يقين ثابت... أبدى ما هوإلا إرادة عصر بهرتنا فيه الآلة... فسخّـرتنا وسيـّرتنا الى مصير محتوم فى الحروب العالمية... هـزت ضميـر العالـم... وبصّرته بخطر قيادة العلم العقلى

على الضمير الوجدانى، وأدرك الانسان حكمة ثنائيته القدرية... نفس تموج بالتناقضات... كما الكون والذرّة... والليل والنهار... هما نسيج التكوين... وحركتها نحو التطور.

وحمداً للأجيال المتعاقبة... تنشأ فى بيئة مختلفة... وتتشرب أعرافاً مختلفة لتزيح فى طريقها ومسيرتها جمود القابضين على المذاهب... الواعون منهم والساهون...

انهم ومذاهبهم قائمون معا... أوزائلون معاً... إنه صراع الأجيال وسُنّة القدر.

ولكننا، والحق يقال... بفعل تقادم بلدنا وحضارتنا المتوارثة القديمة... نتمتع بكهنة تتوارث العلم والفن تحافظ على ثباته ودوامه... فى انفصال عن حركة التاريخ.

فى زهوالقواقع... انغلقت... وارتضت لنفسها الحرمان من رحيق الحياه ونبضه.

ننادي بالقياس والتنميط فى عصر الآلة والانتاج بالجملة...
ننادى بالعمل والانتاج الجماعى... شعائرنا صلاة الجماعة...
ولكننا خرقنا ناموس الحياة...
وجدانياتنا منمطة... وعقولنا سلبية... تجذبها البؤرات الواردة لتتجمع بعضها فى واد... والآخرين فى مستنقع.
وبين هذه النمطية وهذا التشرد... يبدوالواقع وكأننا أبدعنا لغة خاصة بنا...
نشدوبها ونقدم لها القرابين... فى شعائرنا الاجتماعية وفى وسائل تواصلنا...
تلك هى لغة النمط الرتيب خلف آئمة مصنّمة...
رغماً عن أننا نكفر بالأصنام وحطـّمها آباؤنا... لكننا أبدعنا أصناماً تخدع أعتى المتأملين...
إننا أول من ابتكر الروبوت الانسانى... لنسير على هديه مرددين... آمين.

نحن لا ندرى ما كانت بالتحديد وظيفة الآثار الباقية لنا من الحضارات السابقة.
ولا نقيّم هذه الآثار بقدر تأديتها لوظيفتها. ولكن القداسة التى تحوطها... والحرص الشديد عليها... وانتقال الناس من كل أفق بعيد للتشبث بها... والتملّى من طلعتها... انما تسببه قدرة القيم الجمالية وجاذبيتها ورمزيتها الحضارية... وقيمها المتضمنة.
تلك القيم التى تكشف بهاء الحقيقة.
إن التجاوب والتنهيدة والاستغراق الذى يشعر به الانسان عندما تتكشف له هذه القيم وتسكره بخمرها، حقيقة أزلية لارتباط وجدان الانسان والكون.
الانسان يجد نفسه أمام الهرم... يدرك مقدار فزعه من الموت... يفهم رغبته فى الخلود... يحس كم يصرف من طاقة لتخليد ذكراه... وكم لاستمتاعه بالحياه... هل يتعلم؟
إن الذى يجمع الناس حول البارثينون وتاج محل والسلطان حسن ليست بالقطع احتياجات فسيولوجية ولكنها نفسية من صميم وجود الانسان ومعنى تفرده وسر ظهوره فى الكون.

لقد أدرك الانسان بتاريخه الطويل أنه ارادة الطبيعة لاكتشاف تلقائيتها والاعجاب بها حتى التقديس.

وكلما اكتشف الانسان قيمة... بنى لها معبداً... تعبّدها فيه... هووسلالته، وأصبح انسان القرن العشرين يرتاد معابد للموسيقى... ومعابد للنقد الذاتى... فى المسرح والسينما... ومعابد للمنجزات التاريخية تحت اسم المتاحف... الخ.
حيث نجد الناس يتأملون فى خشوع وصمت وتقديس كل ما عبر اختبار الزمن وخلد فى المكان.

كثير من الناس لا تفهم لهفة الناس على القديم والتاريخى والأثرى. حيث لا يفطنون الى المعابد التى قد بناها كل منهم لنفسه لتقديس شئ ما... قيمة ما... وأغلبها معابد نفسية... وأرذلها معابد الذات.

نعيش الآن فى عصر يهوى التصنيف بين البشر...
فذلك عالم... وهذا فنان... وذلك فيلسوف... وهذا جاهل...
وكأن الأشياء تتشكل حقيقتها من عناصر نقية... ليس بها أية شوائب، وكذلك الانسان!

والمُشَاهَد أن الانسان يُقذَف به فى هذه الدنيا وقد حوى... مثل صندوق العجب... تلاطمه أمواج الواقع البيئى بشقيها الطبيعى والانسانى، ويشب عن الطوق وقد تمخضت معركة نموّه عن ابراز صفات... وطمس أخرى... وترك امكانيات... تبحث عن دور.
من الناس من تأكدت فيه قدرة التحليل... وآخر جنحت به أطياف الخيال، وآخر ترك قاربه تتجاذبه أمواج المجتمع... فهوتارة على جزيرة العقل... وأخرى على شاطئ الوجدان.
وقد حبت الطبيعة بعض الناس... بمرونة ادراكية... ورويّة فى الأحكام، فهم يرون فى الدنيا زوايا عدة وامكانيات غير محدودة، رغم قُرب بعضها لنفسهم... وبُعد بعضها عن تفضيلهم.
هؤلاء يتمتعون بما يمكن تسميته حس عقلانى... يتفاوت بعضهم البعض بين شفافية وابتكار وابداع.
فإن قُدّر لأحد من هؤلاء أن تؤهّله بيئته لثقافة معمارية...

فقد شاءت الأقدار أن تهدى العالم... معمارياً.
والثقافة المعمارية... تنمى فى الانسان قدرة تحليلية... وفضول... يدفعه نحوالأسباب... وتنمى ملكات الرؤى والأحلام... ليسبح خياله فى عالم الممكنات، وليس فقط فى عالم المتحققات...
وتترسب فى ذاكرته خبرات وطموحات الأولـين... فى محاولتهم الدائبة للتفوق على قوة الجاذبية... بقوة الاشعاع العقلـى...
إن الذين نما حسّـهم... يتراقصون على أنغام المجاز والطباق... ليسوا معماريين
والذين نمت قدراتهم التحليلية للتعمق فيما وراء الأسباب... ليسوا معماريين
فالفريق الأول دورهم... ازاحة الجهد عن العقل البشرى...
والفريق الثانى فضلهم... ايقاظ الناس من نشـوتهـم...وهذا بالطبع تبسيط مـُخِل... لتوضيح الأمور.
وهناك أفراد آخرون أوتوا القدرة على شحن المحسنات... بمضامين واقعية وكساء الحقـيقة بحس مرهف وتوريث الأجيال برسالة العصر... مشخصة فى تشكيلات مشحونة بالرمز والفكر والخبرة... تلمس شفاف الحس... بتوتر... فيعطى العقل جواز المرور... لتترسب خبرات السوالف.

أولئك... يبرز منهم من يجد تعبيراً لذاته وعصره فى احدى دروب الفـن المختلفـة، كل حسب قدراته واستعداداته.
المعمارى أحد هؤلاء... الذين أوتوا الحس العقلانى.

والمعمارى الحق... هومن تشكلت ذاته من توازن جميل لذلك الحس العقلانى. وقاربه مهما اهتز مع أعاصير العواطف، وتوتر الحس... ومهما جنح نحوجزر الفلسفة... فهومجبول بطبيعته على أداء ترانيم العقل، وصلوات المنطق.
وليست هذه بالطبيعة التلقائية... أوالمهمة السهلة، ولكنها خبرة عمر بأكمله... تنبنى على مَلكَة... حبتها الطبيعة للبعض، وعبرت عنها ارادة العصر فى قلة.

فى أيامنا... تدفع المحافل العلمية بجحافل من المختصين... منحتهم صك العمارة والهندسة... يحاولون السير متوازنين على شعرة الواقع... قلة تعّبر... وأغلبية تنأى عن الحس العقلانى... فتسقط على أحد الشاطئين وتشذ عن الاخر.
لقد أبحرت السفينة الانسانية بعيداً... تفصلها ملايين السنين... عن الحس المطلق... والفطرة الغائبة عن الوعى... والايمان الغيبى... واليقين النائم.
لقد أدركت البشرية مرفأ العقل... وفضول الأسباب، ونمت به قواعد وقياسات وملكات الانسان... حتى أضحى العقل غريزى فى الانسان... فلايدرك الأشياء دون أن يحسها... ولا يحسها دون ادراك...
وإنما هوعلمه وفنه ويقينه نتاج حسه العقلانى... نمى... وترك كل المتقاعسين والمتخلفين عن الركب... يعمهون فى خيال... تصوروه عاصم لهم من طوفان الحضارة.

متى يكون للمُصمم دور... ومتى يغفل المجتمع دوره؟!
الحاجة الى الابداع والتغيير طبيعة وضرورة انسانية.
فى المجتمع البدائى... الابداع تلقائية.
مع التحضر... ينشأ التخصص ويصبح الابداع مهنة ودراسة، وتفقد الغالبية تلقائيتها الابداعية.
هنا يكون للمُصمم دور... واحتياج اجتماعى شديد
فاذا دار الزمن دورته... وقل المبدعون... تلقائيون كانوا أم دارسون... غفل المجتمع عن أهميتهم، وأنكر دورهم... وما احتياجه الى متخصصين امتلأ عملهم رتابة وملل... وازدانت أعمالهم بالاختلافات السطحية.
لقد استدار مجتمعنا الى نمط الانتاج فى العصور الوسطى... حيث الحرفى هو المُصمم والمُبدع والمُنفذ... حلاً لاشكالية زمانهم. وعندما سقطت الاشكالية، أصبح منفذاً فقط... ناضباً عن قدرة الابداع، أوأسس التصميم... فتشوه الواقع، ودارت عجلة الأيام تقذف يوماً بعد يوم... بأجيال صاعدة فى واقع مشّوه... تتلقى اشارات ورموز بالية... لتنشأ عاجزة غافلة عن الفطرة السليمة أوالعلم الصحيح... لتكتمل حلقة الانحطاط بين البيئة والانسان... دواليك.
ويتوه العرَض مع المرض فلا ندرى... أخطأ المُصمم أم خطيئة المجتمع، وكيف تكون الكفارة...
ومتى...؟

إن معضلة كل مُـبدع فى خروجه من حالة الاستحواز العقلى لابداعه السابق... ليخرج الى استحـواذ آخر... وانغماس آخر... وابداع آخر.

والفكر الخلاق ليس له مفاتيح يتحكم فيها الانسان حسب هواه، ولكنها مؤثرات ومسببات... من الضيق بالواقع... والرغبة فى الخروج منه... والاحساس الصادق بالمعضلة... وليس بالهروب منها الى غيبيات أوبتجاهل مقدماتها... أوبتغليفها بمبررات.

كل هذه المسكنات ينفضها الزمن مع كل غضبة له... فتوقظ الناس مـن خديرها.

والفكر الثاقب قـد يولد فى ومضة الهـام، ولكنه لم يتكون فى لحظة بل تصاعدت مقوماته فى وجدان البيئة... فشخصت ارادتها فى من أصبحت ارادته جزء من ارادتها... وقـوّتـه نابعة من تصميمها... وصموده ضرورة لتحقيقها.

الابداع ليس هوالومضة... ولكنه قـّوتها الدافعة... الابداع يحتاج الى موهبة وعلم وصبر ومثابرة وتفانى وصدق واخلاص وعناداً نابعاً من يقين لا يتزعزع... وقبل كل هذا، ارادة العصر النابعة من حاجته، ورغبته التى وصلت فى الحاحها إلى بركان يهدم كل اليقينيات الرافضة لدوران الزمن مع فطرة الكون.

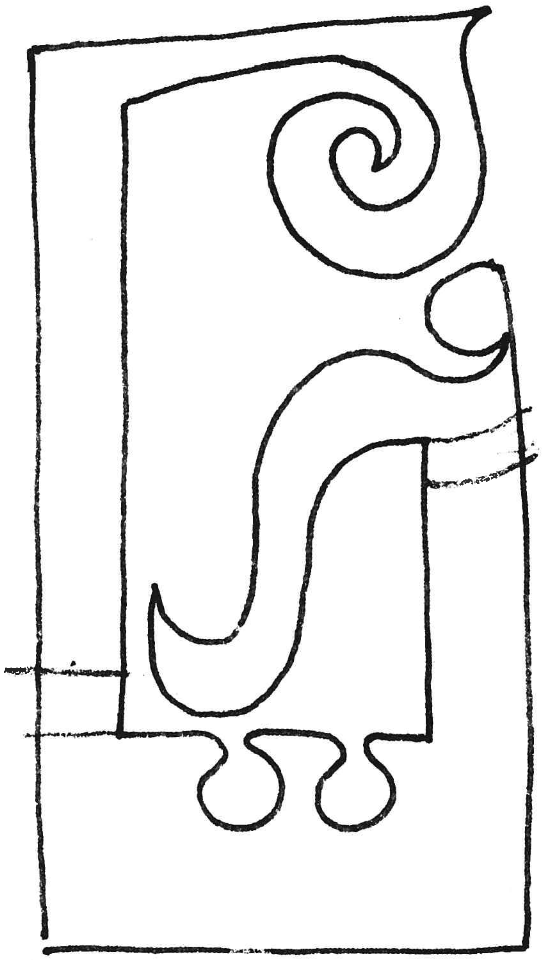

لفظ يستهلكه العامة دون وعى لصعوبته.
السهل هوالحل المنطقى الطبيعى للسيطرة على المعضلات... ولكن أين القدرة لأسهل الحلول... من له القانون البسيط، يفعل السحر فى المشاكل وتفسيرها؟!
إن هذه القدرة تستنفذ أعماراً وخبرات ومواهب للارتقاء الى اللمسات البسيطة السهلة حتى تستحق لقب الممتنعة... إلا على القادرين.
ويخلط الناس بين السهل والمعتاد... فقد يعتاد المجتمع بالتقادم على أشكال وأنواع أبعد ما تكون عن النظرة السمحة والتصرفات التلقائية، النابعة عنها... بل قد تؤدى تجارب التاريخ وعنف المؤسسات الانسانية الى استجابة غاية فى الحيلة والتعقيد واللا مباشرة، لتبدوفى عيون الأغلبية هى السهلة الذى لا يصح غيرها... والطبيعى الذى لا يعادله منطق.
ولكن كم من كد متعمق... وكم من شفافيه مرهقة... وكم من صبر على المعارضة والتجاهل والاستخفاف، يحتاجه فذ ليحرف المجموع عن عاداتهم الفكرية المتأصلة ويقنياتهم المحبطة... واعادتهم الى حظيرة الفطرة والسهولة فى إستجابتهم. والاستجابة الفطرية للبدائى تكون موائمة لبيئته... فهوأقرب للغرائز البدائية الحامية لحيواناته، وعندما تغزوه حضارات أخرى تديره فى أفلاكها وتصيبه بعقدة النقص والتقليد... ترتبك وجدانياته ويصبح التعبير عن احتياجاته ممسوخ.
فاذا تقادم العهد... وتنوعت مصادر التأثير بصور غاشمة لا تسمح للمجتمع

بالتقاط أنفاسه... وتخير طريقه... وتحليل مؤثراته... يصبح المسخ تلقائية... وعادة وأمر طبيعى... وتصبح الفطرة السهلة السليمة خطيئة... تستوجب البتر.

إن التحليل الى الجذور... من أشق الأمور... بل وإن الوصول الى أصل الأصول من ضروب المحال. والحدس والعلم يصل بالناس الى حتمية الاختيار حيث لا مبدأ ملموس. فأما للغيبيات نسكن اليها... أوللمحاولات الدائبة بحثاً عن مرفأ.

والمؤسف بل المفجع أن يمتهن مهنـة الابـداع كثير ممن اختاروا الاستسلام الى مذهب يتحرون فيه... ويدعون الآخرين الى طريقهم... بينما يتحلى القلة بشجاعة التعلق بين السماء والأرض يرتادون كوكب بعد كوكب... ليست بالضرورة كلها مضيئة.

وعلى قدر ما يكون المبدع متفائلاً بالمستقبل... فرحاً بما تأتى به البراعم الناشئة من جديد... دافعاً لهم للابداع والتفوق والعبقرية... يكون المتحجر محبطاً بفعل تخلفه عن ركب الحضارة والتطور... ويكون قانطاً رافضاً للأجيال الجديدة مؤكدا فشلهم... متباكياً على الأيام الخوالى والعصور التى ولت.

فـى العصـور المـاضيـة

كان المحيط الاجتماعى تطفوعلى أمواجه مواهب وعبقريات تقود فكره وحسه

وتجسد وجدانه فى قالب العصر.

وكان المعماريون يبرزون كانتخاب طبيعى بين الرسامين والنحاتين وسائر فنانى العصر.

فخلفّت العمارة قمماً فنية وابداعات تناظر بعضها البعض... رغم البون الشاسع فى الزمن.

ولم تخلّف لنا تلك العصور أعمالاً مهمة لمدعى الفن أوأواسط الموهوبين.

لكن العصر الحديث تضخم فيه كم المشاكل والاحتياجات... وتضاعفت فيه المعاهد والمدارس... تقذف عاماً بعد عام بالمختصين يجربون حظهم فى الواقع... لتعيش بيننا أعمال معمارية تؤثر فينا... تمثل للعامة... بل للمختصين فى أغلب الأحيان أعمالاً مرجعية واتجاهاً فكرياً يتسرب الى وجدان المجتمع رويداً رويداً.

وقد أزاح العلم والطريقة العلمية... الاحتياج الى العبقرية وأصبح السوق يموج بمن تعلّم الطريقة... وأصبحوا فى نظر الناس من المشايخ... ومعظمهم لا يرقى الى المريدين.

وما لم يمتلك الانسان موهبة تدفعه دواماً نحوالتحقيق... فلن يتحمل معاناة الفن والعمل الدؤب والمحاولة المستميتة.

فماله وهذا العناء وقد حصل على صك من المعابد العلمية... يزينه فى بعض الأحيان ألقاب ونياشين... تكون هى قبل غيرها عاصماً له عن طريق الكد والكفاح والاستكشاف.

للناس... أية ناس... أية طبقة... وفى أى مجتمع
الأصل اننا نمتهن تخصص أفرزه المجتمع لحل مشاكله... بكمها وكيفها.
ولكن كيف...
هل يتطفل المعمارى على المجتمع ويفرض عليه رأيه؟ أم ينتظر أن يطلب المجتمع منه ذلك... وأى فئة تطلب... وأى معمارى يطلب...
الفئة العليا... العليا بثقافتها... أم الوسطى بماديتها... أم الدنيا بقلة ادراكها؟
العليا آوت مع معمارييها الى جزر اجتماعية حجبت فيها نفسها عن عيون الفضولين... تهدر طاقتها وامكانياتها فى زخرفة حياتها وأوقات مللها.
والدنيا... أدنى من ادراك حاجتها الى عمرانى يساعدها... أوقل أدنى امكانية... وهى فى الغالب تحل مشاكلها بنفسها فى غيبة عن الوعى الاجتماعى من ناحيتها... وتجاهل المجتمع لاحتياجها.
أما الوسطى وهى الحاملة الحامية للتقاليد... والوسطى بثقافتها وماديتها... المستهلكة للاعلام... المؤثرة والمتأثرة، بمظاهر البيئة المحيطة...
أى معمارى تطلب وأى معمارى ينتج لها... وأين الدولة وكم المشاكل العمرانية والسكانية وجماليات البيئة...
أليست القاعدة أن يستهلك السلعة الواعى لاحتياجه لها، والقادر على مستواها، أليست السلعة على مستوى متخذ القرار... ومستواه الحضارى...

أليس لكل مستوى جوقته المناسبة من العلماء والفنانين والمتصرفين فى الواقع. أليست العمارة والمعماريين سلعة من السلع... تباع فى سوق النخاسة لمن يدفع ومن يفهم ومن يقتنى... والحال على مرأى الشهود، أقلية غائبة عن وعى العصر... وأواسط تقودها أوهام السوق... يخدمها أنصاف المتعلمين وأشباه الموهوبين ومن دفعتهم المحصلة الاجتماعية... الى مقاعد المتصرفين.

تعيش الناس فى بلدنا ... على الشكوى ...

على الحيرة... هل عانت البلد والأهل لتعليمنا وتثقيفنا لنظل نياشين على صدور الأمة... أم لنكدّ ونجتهد من أجل رقيها وازدهارها... من أجل توفير حاجاتها واشباع وظائف أهلها.

الكل يعلوبالصراخ... انتاج... انتاج... انتاج، ونحن نعمل ونكد لتذهب أعمالنا صدى الريح، أوسراب الصحراء.

الى متى نظل مختصون مع ايقاف التنفيذ...

الى متى يظل السوق زاخراً بالسلع والناس جوعى...

الى متى يظل جهدنا تئن به الرفوف...

الى متى تظل المساكن أعزبة...

الى متى... الى متى...

الى متى يمزقنا الشك... الى متى نظل فاقدى الثقة فى أنفسنا... وفى الآخرين.

الى متى نحترم القبعة، ونستدير للطواقى؟

الى متى ندور فى ساقية النقل والاقتباس؟

أليس لنا لغة نتخاطب بها... قادرة على التعبير عن احتياجنا وأفراحنا وأحزاننا.

أليس لنا مفردات لغة معمارية منذ فجر التاريخ؟

كيف يستطيع الفلاح... وساكن الواحات أن يبنى بيته من تلك المفردات ونحن نبحث عن منجزات الآخرين لنقلدها.

لماذا تتراص علب الكبريت فى كل أحيائنا... وفى المدن الجديدة؟

لماذا يمتلىء أطفالنا بالأمل والحب والمرح والخيال... وينضب خيال مثقفينا إلا عن علب الكبريت...؟

لماذا هذا الكسل العقلى الذى كاد يصبح دستوراً...

لماذا يرفض أساتذتنا وكهاننا كل إبداع وإبتكار ومواءمة مع زماننا وبيئتنا...؟

هل حقاً رضينا بقدرنا منذ أن قُفل باب الاجتهاد...

أيها المعماريون... قفل باب الاجتهاد!

واختصرت المذاهب الأربعة الى مذهبين فقط.

مذهب كل مُستغرب... ومذهب المتصوفة...

ومن خالف ذلك فأولئك هم الغافلون... الذين تدفعهم فطرة الانسان المبدعة... والكل حولهم يسخر... المشفق والغيور.

الكل يتعاطى عقار التقليد

الكل غير راضٍ... الكل يضج بالشكوى... ما هذه الفوضى الفنية... لماذا يحوطنا القبح من كل مكان وفى كل مكان...

إذا ترائى لنا أن نزين شوارعنا... تكون الطامة الكبرى... أوكما قالوا " جه يكحلها "... وليست هذه مشكلة أفراد... أوطبقات... أومتعلمين... أوحتى مثقفين... ولوقدر لأى مختص فنى أن يبادر بزيارة صديق فنى ذوتخصص آخر... لدهش لعدم المام هذا الفنى بالفنون الأخرى... فترى بيوت الفنانين أبعد ما تكون عن التنسيق الفنى.

إن ما يتعاطوه من الأعمال الأدبية... اوالمامهم باتجاهاتها المعاصرة... متخلف فى الأعم، وكثيراً ما سمعت من معماريين، عدم احساسهم بالفن التجريدى... برغم كون العمارة تجريد فراغى.

إن التخصص والتشعب فى العصر الحديث ترك الانسان محصور فى دائرة تخصصه... بالكاد يلم بالتطورات أوالنظريات التى تنطلق تباعاً... ويصعب ملاحقتها.

وليس للأغلبية أن تلم بالعلم والفن الرفيع إلا من خلال البيئة المحيطة... ووسائل الاعلام... ونحن أدرى بهما.

لنا فى مجتمعنا قضية خاصة جداً بنا...

فنحن مجتمع تعرض للاستعمار أمد طويل... حتى تمكنت منا عقدة النقص.

فلا نرى الجميل والصحيح... إلا ما يصدر أويأتى من الأجنبى.

وأصبح كل منا بصرف النظر عن مستواه الثقافى أوالطبقى، يدور فى ساقية

تروى وجداننا أنهاراً من التقليد... كل حسب مصادره... من كتب...
وأسفار... ومنجزات... مستوردة... لمجتمع مستهلك.
كيف الخروج من الحلقة... المسئولون... الاعلاميون... العلماء... الفنانون...
الفلاسفة كلهم يتعاطون عقار التقليد... وأدمنوه الى درجة التلقائية.
وإن شذ أحد... أوعمل... فذلك على سبيل الصدفة... أوالبدعة، والضلالة.

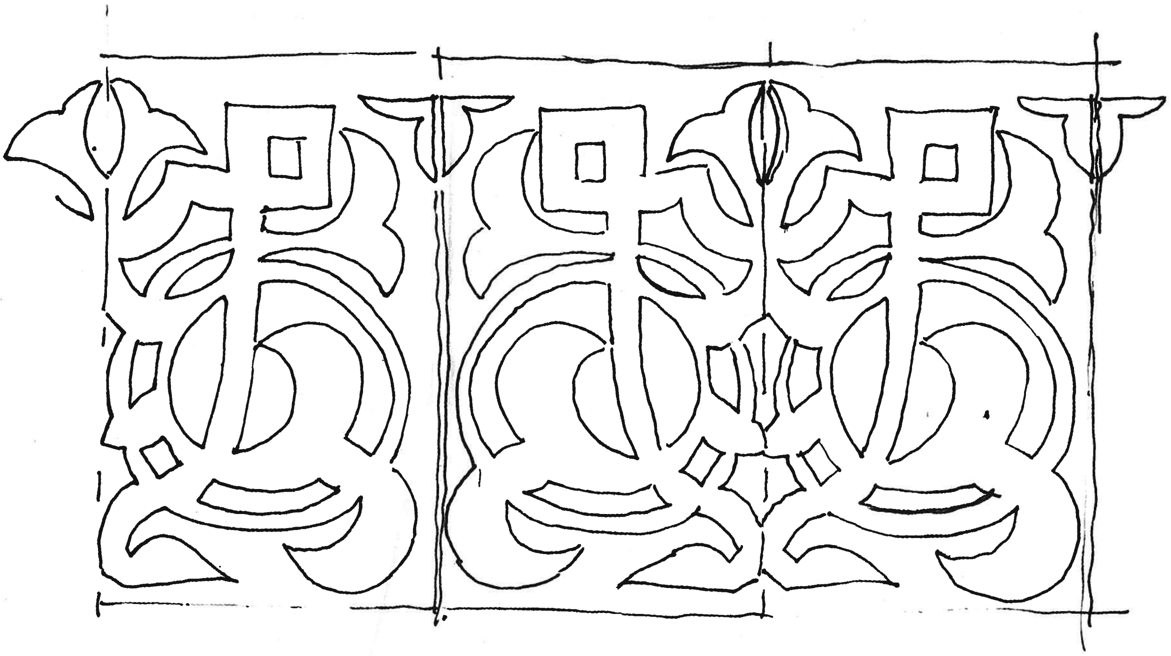

منذ عصر المأمون... لازالت الاشكالية التى تشغلنا... هى الأصل والنقل تغيرت أسماؤها عصر بعد عصر الى أن أصبحت فى عصرنا... الأصالة والمعاصرة، وهى فى صميمها رد فعل لمركّب النقص الذى أصابنا من تفوق الغرب وحضارته المعاصرة.

وسواء منا السابحون فى طوفان المعاصرة أم المعتصمون بجبل الأصالة...

وسواء منا المنغمسون فى المضمون... أوالسـائرون نياما وراء الشـكل...

كلنا مجابهون بتحدى العصر، نستجدى التوازن الذى افتقدناه والمبادرة التى هجرتنا.

ويمكننا أن نستقرئ مسمى جديد تؤول اليه الاشكالية... هو التقنية القديمة والحديثة.

فمحاولات الانسان للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها قد تسارع خطاها، فلا يبرأ من وسائل التقنية الحديثة أعنى المتمسكين بالقديم.

لا يمكننا تجاهل التعاطف مع الجذور، ولا نحن بمستطيعين العيش دون رحيق الحضارة.

وهنا تلح علينا اقتصاديات الواقع...

فمن يمتلك الطائرة ، لا يرتحل على الجمل...

ومن أدركته الكهربـاء، لا يستنير بالزيت...

ومن يتخابر بالهاتف، لا يعتمد على المراسيل.

إن التحليل الواعى لمراحل الانسان التطورية يفهم أن القضية هى السيطرة على الزمن.
فالتحضر هو حسن استغلال الزمن.
ذلك الاستغلال القادر على كم المشاكل بقياسها الحالى.
لقد امتدت أعضاء الانسان وحواسه... بل وعقله بفعل الأجهزة الحديثة
فأصبح يستشعر بآفاق وأعماق...
ولكنه يفقد قدرات... كانت ضرورية.
فالآلة تفوقت عليه فى دقّته...
والحاسب أرخى قدرته الحسابية.
لكل زمن... الباكين عليه... والفرحين به... لكن الزمن هوالزمن، والتطور هوالتطور، وعلى قدر الكم يكون الكيف.
والمعادلة التى تحكم زماننا ومكاننا كمصريين، نتاجها بعيد عن أحلام طرفى اللعبة.

فالفجوة بين الحلم والواقع... أرحب من طاقة المجتمع... يتمزق وينزف محاولاً مجاهداً... آملاً يائساً غير راضٍ.

تداهمه منجزات العصر من كافة الأنحاء، كتب... دوريات... صحافة... اعلام... يتنفسها رغم أنفه، من خلال أنسجته ووجدانياته التى تجر فى أذيالها آماد وآماد.

ومازال الحاسب الذاتى لمجتمعنا مشغول يبحث عن الحل.

لكننا ننتج ونعيش ونمرح ونعانى...

الطبيب حائر، والمريض يتعاطى الدواء... وكلاهما مستسلم لقـدَره.

لقد تقادم العهد بهذه الأوضاع حتى ذاب الواقع فى وجدان الناس... وهذه هى المحنة.

زالت حيرة الطبيب ولم يعد المريض يدرك انه الدواء... أدمنه فأصبح من فطرتـه.

لا يسلم من ذلك العوام والمدارس الفكرية... الكل يتنفس فى بيئة لا يدركه غيرها... وإن دعى الناس لبطلانها.

ما هذا الانفصام العجيب بين الناس ووجدانهم... فى بلدنا العامر...؟
إن معاول النقد والهدم... يحملها الجميع... ساخطون على المجتمع ومظاهره...
الأقتصادية... العمرانية... الفنية... السلوكية.
لقد اتخذوا مقاعد المتفرجين؟
لست أدرى بعمق... حقيقة ما يجرى فى كافة الأمور... أما فى حرفتى... فان ما أراه... يمتنع عن التفسير.
إن الناس فى بلدنا... حتى المختصين... لم يدخلوا العصر... واقعياً... وجدانياً... عاطفياً... بينما دخلوه كلامياً... نقداً وتجريحاً... لبلدهم ومجتمعم.
لا أرى فى العموم عمارة مصرية عصرية بالمفهوم التحليلى للفكر المعاصر... وإن تحلت المظاهر بما يشبه المعاصرة بسطحية... وسذاجة... وابتذال.
ولا أرى مساكن إلا دواخلها تقليداً لطراز أوآخر... لعصر بلى أوآخر.
حتى المختصون...
يتشدقون فى محافلهم بالعصرية والعلمية والتقدم التكنولوجى... والفكر المجرد والمتطور... وحضارة القرن العشرين الذين يتمثلوها فى أبحاثهم ويطالعونها فى الدوريات والكتب.
أما واقع معيشتهم... المعبر عن وجدانياتهم وعواطفهم... فتلك قصة أخرى.
والعجيب أنهم غاضبون... مستاؤن... ومترفعون.

تطالعنا المقالات... لنجد الدارسين... على اختلاف تخصصهم وتنوع مذاهبهم...
ساخطين... ناقمين... لما تتردى فيه بلدهم من مستوى... وكأن المشكلة... تخص العامة... وهم فى أبراج مشيدة...
وكأن الاقتصاد ليس مشكلة الاقتصاديين والسياسة ليست مشكلة السياسيين... وكذلك التعليم... والعمارة... وكأن رجل الشارع هوالعرض والمرض... وهوالتشخيص والداء.
بينما واقع الأمر ومنطقيته... أن يكون موقف أى علم وتطبيقاته هومسئولية محترفيه... أما هذا البلد الأمين... وجماهير الشعب الكادح... فلقد استقطعت من قوتها... ودفعت أبنائها الى العلم والتخصص ليحق عليهم قول الشعر:
" علمته الرماية، فلما اشتد ساعده رمانى "
أين تراث أمتنا العظيمة... أين تمسك أهل البلد بالقيم... أين مظاهر هذا الترابط الاجتماعى الذى تسمعه على لسان الناس كافة... نقداً لكل من خرج على اجماعهم... مشرباً وملبساً... أم أن القضية... الخروج على الاجماع!

إن المسئولية يقع حجمها... على كل فرد وموقعه.
ولست أبالغ إن قررت، أن محنة هذا البلد تكمن فى متعلميها... بل فى مثقفيها... إن كان يحق أن يلقب بمثقف... من أغفل التزامه... الوجودى... ومُسخت ماهيته.

وكيف ينفصل فى عقل المثقف صالحه وصالح المجتمع... وكيف لا يعى المثقف أن فكره وليد حاجة المجتمع... عطاؤه الفياض... لبنات نفسه... من نبع المجتمع.

هل انحرفت فطرة الناس... فزحف هدير نفوسهم يجرف ماتبقى من تربة صالحة فى براح المجتمع... تقاعساً عـن اروائهـاً؟

وكل تحد له استجابته، وكل استجابة تستقطب فى رمز وتسلك دربا... يكون أقرب الدروب وصولا بالاستجابة الى صميم التحدى... وقد أفرغ الأقدمون طاقاتهم الخيالية فى الأساطير... حينما كان التحدى قوى الكون الغامضة.

ثم حولوا دروبهم الى المنطق عندما اكتشفوا أن قدرة الانسان فى فضوله...

ثم نحتوا القوانين... ليجابهوا امتداداً حضارياً واسع الأرجاء... مختلف المشارب...

وعاشوا عصوراً يزينون لأنفسهم كائنات أسطوريه... يستعدون به قوى القهر الغاشمة التى أحاطت بالبشر من البشر.

وجاءت حلقات تمكنوا فيها من سحر الكلام... يذيبون به جحود القلوب... وتحجر العقل.

انهم الآن يعبدون التجربة... لقد اكتشفوا قوة النمل... خطوة... بخطوة انكشفت لهم مغالق الطبيعة وأسرارها...

فأفرغ الانسان خياله فى صنع التقنية... والتصميم الصناعى.

وما تقاعست العمارة أن تكون رمزاً مجسداً لكل حضارة، فجسدت الأساطير والمنطق والقانون واللغة... والعلم، وكان لها فى كل عصر متحدثيها وخطبائها... وأدبائها، وما عدمت شعراء يخلدون رموز الحضارة.

نحن المصريون... نحمل فى طياتنا النفسية معانات عصور مضت،

وحضارات ولت... حملنا الفئوس والمسطرين... توجّهنا كما شاءت لنا حضاراتنا المتعاقبة وشيدنا كما استلهم لنا أرباب حرفتنا... وخلفنا قصائد من كل البحور... ولكل الأمور... وبكل الكفور.

فى هذا العصر... حيث أبحرت سفينة الحضارة فى اليم البعيد... ما زلنا نشيّد... ولكن اللغة غريبة... بعيدة... لا تسعفنا للتعبير بالكلمة... فمن لنا بالقصيدة!

وإن كانت العامة لا تدرك لغة العصر، وتستدير للحضارة... هاربة... عن عجز ملاحقتها... فمنّا والحمد لله من يدرك كم ساهمنا فى هذه الحضارة بل منا من ركب السفينة... ومنا قوم يديرون الدفة... ويجدفون مع التيار... وضد التيار.

بينما يتفق الناس فى مصر أننا فى حاجة الى تخطى ما نحن فيه الى تطور نحوالأفضل... وهى مرحلة مهمة... فان الاتجاه نحوالأفضل مازال خلافاً عقائدياً.

أيكون الى الأمام أم الى الخلف... الى اليمين أواليسار... الى الشرق أم الغرب... وتشخيص المرض والعلاج... لايزال خلافاً شديداً.

أهوأخلاقى... اقتصادى... ثقافى.

أظننا اليوم... على اختلاف مشاربنا... نلمح تفهماً عاماً يسود مفكرى العالم... أن السبق التكنولوجى قد نحى المباريات الأيدولوجية جانباً... وأصبحت عقيدة العصر ورايته المعلنة " هيا بنا نعلم... هيا بنا نعمل "... لقد مضى عصر "علم الكلام ".

أما المتمسكين به... فهم فى غفوة حضارية أعراضها تراجع أخلاقى واقتصادى... وثقافى.

إن المجتمعين بمعاول الهدم... قد فاتتهم سفينة العصر الحضارية... وهم بدافع من وجودهم وذاتيتهم... يحاولون اغراقها عن غير وعى... بينما يملؤهم يقين لا يتزعزع أنهم حراس الحضارة وقيمها التى أغرقها الطوفان. ويؤمنون أنهم يمتلكون فى ذواتهم أسباب النجاة... عوضاً عن السفينة.

وخبرتى فى محاولة التطوير المعمارى... وضحت على مدى أكثر من نصف قرن من التجارب... أن الناس لا تتصدى للجديد بدافع من مصلحة مباشرة... كما يحلو للناس تصوره... تبسيطاً للأمور.

بل فى صميمه الأهم والأخطر... دفاعاً ذاتياً عن الوجود المستكين... والقيم المترسبة... والوجدان العتيق... الذى يتطلب تغييره شجاعة اجتماعية فائقة ويقظة بعد سبات دام دهوراً... كسته الأيام أردية موضوعية تشابكت مع نسيج العلاقات الاجتماعية، وأصبحت من صميم الذاتية الجماعية... التى تحقق له الاستقرار الايمانى... الضرورى عند درجة معقولة... والذى يفقد المجتمع بشريته... والآدمى انسانيته... حينما يصل الى درجة اليقين الحيوانى الخالص من الشك... المعفى من الاختيار والحرية.

لقد أدركوا من قديم الزمان أن "أخطر ما فى التخلف هوالدفاع الذاتى عن التخلف"... فهوفى حقيقته... دفاعاً ذاتياً ضد الحركة والنشاط والفكر والفضول والشك والاختيار... والحرية.

إنه دعوة للموت الانسانى... دفاعاً عن الوجود الحيوانى.

أيــة شجــاعــة ؟!

لو تتبعنا قصص... أفلام... فيديو الأطفال... لو تذكرنا طفولتنا... وروايات الشاطر حسن... وطرزان... للاحظنا أن فكرة الشجاعة تترسب فى وجدان الناس بفعل حكايات قبل النوم.

منذ الطفولة... هى شجاعة الجسد... أما شجاعة العقل... شجاعة الرأى فهى لا تكاد تصل الى أسماع طفولتنا إلا فى قصص الأنبياء... المرتبطة بذهننا بما أهّله لهم رب العباد... أما الانسان... فغير ذلك.

وإنى لأذكر أحد الناس وقف أمام أحد أعمالى ليقول: هذه شجاعة نادرة وأعترف أن الفكرة كانت جديدة على أذنى... وعقلى... فأنا أتصرف بوحى من احساس اللحظة... والرغبة فى الاتيان بالجديد... أما شجاعة العقل هذه فلم تكن قد ترسبت بعد فى محصولى اللغوى.

وعندما فكرت... وجدت أن أهم ما يتحلى به الانسان... هى شجاعة العقل، فشجاعة الجسد... شجاعة حيوانية غريزية... منشأها الدفاع عن البقاء أما شجاعة العقل... فهى الدفاع عن الانسانية كنوع وتفرد.

وإذا تأملنا عبر التاريخ... من قدّر لهم أن يغيروا الفكر... الناس والتاريخ والتقاليد والعادات... بل بعض الوجدانيات المتأصلة... الضاربة الى الجذور سنجدهم يتحلون بصفة أساسية... شجاعة نقد الذات وهى أشق الأمور.

فمن تحلى بقدرة تغيير مسلماته... سهل عليه تغيير غيره.

وهذه قاعدة معروفة... من قديم... وكثير من الناس يدافعون عن مبادئ جديدة... هم أنفسهم من غلاة المتمسكين بالقديم لكنهم لا يشعرون.

فهناك فرق بين انفعالى مع أفكار تتداول فى سوق المناظرات... وبين تقمصها فى واقع المعاملات فالشجاعة... والخير... والكرم... والتفانى... وانكارالذات... والتطور مع كل جديد من العلم والتكنولوجيا، والحس الجمالى... قيّم تدافع عنها كل الناس وتتمسك بحرفيتها... كانها مُنزّلة... عند الحوار.

لكن الأغلبية قاصرة... إن لم تكن متصدية لها... عند التصرف، ألا يفكر الانسان بوحى من عقله... ويتصرف بوحى من لا شعوره؟!

المجتمع المصرى من أقدم المجتمعات التى لها تاريخ بناء مُسجل... أوقـُل تاريخ معمارى... بل له تراث معمارى محفور فى ذاكرة التاريخ كمنجزات ذات دلالة حضارية.

ولما كان الفن المعمارى... فناً جماعياً اجتماعياً... فهذه الشواهد المعمارية الباقية... هى مظاهر لمجتمع يتمتع بحّس مرهف، وقدرة تنظيمية فائقة هى من أعمال العقل والذاتية الجماعية.

إن الانسان والمجتمع المصرى... كان قديماً ذا مستوا ثقافيا حضاريا عـال.

ولوطالعتنا الدوريات أوالكتب بعمل معمارى مصرى قديم لم يسبق لنا أنّ تعرفنا عليه، لأدركنا انتمائه للفراعنة من لغته المعمارية الواضحة الجلية.

فقد كانت لهم لغة معمارية متداولة... يفهمهـا ويتخاطب بها المجتمع... سواء منهم شعرائها... أومستمعيها.

ويقال ذلك أيضاً على لغات معمارية للحضارات الأخرى... كالصينية... الآشورية... الفينيقية... اليونانية... البيزنطية...

هذه الحضارات المتزامنة والمتعاقبة... كانت لها لغات معمارية مختلفة... متقاربة أومتباعدة. لم تكن هذه اللغات فى انفصال عن عصرها ومفهومه، أوغريبة عن بيئتها وامكانياتها... بل كانت تعبيراً صادقاً - إن لم يكن تاماً - عن ذلك الزمان والمكان.

وكان لهذه اللغات عصور تكثـّـف التداول بها مع تصاعد حضارتها... وخـَـفَت التخاطب بها حين استرخت حضارتها.

واللغة تعبير عـن اتفاق مجتمع... ترمز الى قيمُـه... عاداته... تقاليده... احتياجاته... وسائله... خياله... قدراته... مسلماته...
وكما تكون اللغة المعمارية شكلا يعبر عن مضمون... يتطلب المضمون ابداعـاً لغوياً يحتويه... ابداعاً يصل فى مستواه الى اعتراف اجتماعى... وتبادل جماعى... لتصبح لغة متداولة يتخاطب بها المجتمع... عامة ومختصين.
إنها ضرورة عمرانية... والعمران هورداء المجتمع وقنوات تواصله... حيث لا وجود للانسان بدونه.
إنه البيئـة الانسـانية المقابلة للبيئة الطبيعية للحيوان... والنبات.
إن فرضت عليه بيئة شاذة... ضمرت امكانياته... كذلك الانسان.
فاللغة المعمارية المتخاطب بها المتوافقة مع البيئة والعصر... تؤدى الى عمران متآلف متوافق.
ذلك هوالرحم الذى يحتوى الانسان المتآلف المتوافق مع عصره وبيئته... أى مجتمعه.
والعصر الذى نعيشه... عصر متلاطم. لقد حـوَت الأرض منذ فجر الضمير مجتمعات انسانية متنوعة ومتناقضة، ومتنافرة فى جذورها وقيمها وتحضرها... لكن المسافات كانت تخفف من أثر التصادمات الحضارية، والتى كان لابد منها فى بعض الأحيان.
إلا أن المسافات ظلت تقترب رويداً رويداً... الى أن عـاصرنـا وضعاً تزامنت فيه كل البيئات والثقافات والمستويات، والمسلمات المتنافرة المتناقضة المتعادية.

ولا تسلم أبسط المجتمعات من تبادل الأثر مع أعقدها.
ولا يعفى من قصى ممن دنـى.
ولا يغفل رابض أوراحــل.
فـالوسائل والوسّائط والتواصلات... تهاجم البشر أينما كانوا... انه الطوفان... الذى لا تـُعصم منه مسلمة... مهما تقادمت.
وإننا لنرى مجتمعات استرخت وجدانيتها قرون وقرون... تهتز أوتارها لطبول العصر... وايقاعاته المتسارعة... وهى لم تفق بعد من الصدمة أوتدرى أى لحن تعزف...
و تنافرت الأصوات واللغات وتناثرت... وكان نصيب العمران منها تعبيراً عن واقعها... وتلاطمها مع العصر... فوضى ونشازاً وقبحاً وبُعداً عن الغرض وتقاعساً عن الأداء... وتباطؤا فى حركة المجتمع... حتى اختلت العلاقة بين العقل والخيال... وتخبطت قدراته الابداعية... واحبطت قواه الانتاجية وأهدرت طاقاته... ودار المجتمع فى حلقات الانحدار.
إن مجتمعنا يتمزق بين اشعاع الحضارة المعاصرة، وجاذبية أصولنا الحضارية... ولقد تمزقت معه لغتنا المعمارية... وداهمتنا لغـات شتى... فتجاورت عندنا مختلف اللهجات والأزياء، ولافتـات المحلات واسماء المؤسسات والمنتجات.
وتناقضت المحتويات الحضارية والعمرانية... لنرى لغات معمارية مختلفة... فى الصرح الواحـد.
أين اللغة المعمارية الاجتماعية المتداولة بيـننا؟

أين اللغة التى ترمز مفرداتها الى قيمنا وبيئتنا، وثوابت مكاننا... الجغرافية والطبوغرافية؟
وأين ذاكرة التاريخ فينا وما يرمز اليه فى أعمالنا... أم اننا نعيش فى فراغ تاريخى... ينمحى فينا تراث انسانيتنا...
أين لغتنا المعمارية التى تتناسب مع ايقاعات العصر، ومعدل احتياج مجتمعنا...
أين قواعد اللغة التى يستقيم معها الخط، وينضبط فيها المنحنى.
أين اللغة التى أتحكم بها فى قوانين الطبيعة، وأسيطر على الزمن؟.

أين وأين وأين... وأنا أهدر طاقتى... وأجهد عقلى... ويتسرب خيالى لانتاج المحسنات اللفظية.
طباق... جناس... تورية... سجع معمارى... ومعارك واشكاليات تصلح للأديرة الأكاديمية... ولا ترتبط بأرض الواقع الاجتماعى والحاحاته.
على مدى التاريخ... قاد الفكر الانسانى قلة تفرغت للابداع... تخدمها طبقة من العاملين... مثل مملكة النحل. وتعاقبت الأزمان فخدمت شعوب خاملة شعوب متفوقة فكراً وحضارة.

والآن... عصرنا يبشر بمجتمع بشرى تخدمه الآلة...
انسان مُفكر وآلة تنتج... وأصبحت آلة اليوم تنتج آلة!
وغداً... آلة الغد تنتج فكراً!

ذلك هو العصر والمستقبل...
وتلك هى اللغة... علماً وفناً وعمارة.
ومن تقاعس فهويلعب فى الوقت الضائع... ومن لم يتعلم لغة العصر...
فهوأمى.
حمانا الله من الأمية المعمارية.
ولا كتب علينا أن نكون من أهل الكهف المعماريين.
أوكما قال... حتى يغيروا ما بأنفسهم.

إن كان لعقولنا أن توجّه غرائزنا...
إن كان لوجداننا أن يتناغم مع الزمان والمكان...
إن كانت بنا قدرة على فهم القدر الانسانى...
إن كانت لنا شجاعة اختيار الثراء الانسانى على الوجود الحيوانى...
لكان بنا الوعى الكافى لادراك بداهة...
إن غذاء العقل والوجدان...
واجب بالانسان...
وجوب الغذاء... والماء... والهواء.
ايماناً بقدرة الطاقة الانسانية المختزنة فى ارادة المصريين واحساساً برغبتهم فى اللحاق بالمعاصرة...
لما بدر منهم فى هذا السباق الجامح نحوالتعلم...
وهذا الجهد المضنى... والتضحية المتفانية... التى يبذلها هذا المجتمع فى سبيل تثقيف أبنائه... ودفعهم نحوالعلا...
و عرفاناً لمصر ما منحته لنا من وجود... وأعطته من موهبة...
وما أيقظه احتياج المجتمع بنا من ابتكار... وما أثرى به تراثنا فى أنفسنا من عمق وأصالة ورسوخ.
هذا الذى ملأنا يقينا بحق هذا البلد وقدرته أن تنطلق غريزة الفضوله التي حملها الانسان...

هادياً وموجهاً ودليلاً... قوة العقل...
التـى أقـامـت الحضـارات...
حين ألهـب خيالها حياته بالأساطير...
وهدت موهبة السلام داخل نفسه بالأديان...
وفتـح حـدسها أفـاق لا شـعوره بالفن...
وغزا منطقهـا مجاهل الكون بـالفلسفة...
وأرست قدرتها التحليلية قواعد المعرفة بالعلم...
آن لكل من أهلته مصـر لمـراتب التحضـر...
من أجل قدر محتوم... أن يـرد لهـا دينهـا...
ممثلاً فى العطاء الاجتماعى... لكل الأجيال الصاعدة.
فيرشدها لكنوز الحضارة... التى أفنى فى سبيل جمعها... آماد من البشر فى عمق الزمان.
إن جهدنا... وما بقى من عمرنا...
فداء لزرع بؤرة حضارية مصرية...
وأشعـاعـاً ثقـافيـاً مصـريـاً...
حيث يتواعد العلم والفن... فى ملتقى...
تصـب فيـه كل المواهـب الانسانية...
فتتـوتـر وتتجـاوب...
لتثرى عقول ووجـدان...

كل من يقطن مصر... ويزور مصر... ويحب مصر.
مـن نيلنـا الخـالـد... قلـب مصـر المتـدفـق...
مـن طبيعتنـا السمحـة... الخضـراء...
من تواصلنا الحميم... وأساس حضارتنا...
نـزرع تـلك الحبـة الأصيـلة...
نرويها بجهدنا المتواصل...
نحميهـا بعملنـا الـدؤوب.
نتحمل فى سبيلها كل صعب ومستحيل.
ايماناً بقدر الانسان ومعاناته... حين تتفجر فيه غريزة الطبيعة لاكتشاف تلقائيتها.
فيتحمل المسئولية التاريخية... سـالـكاً دروب العلم والفن والفلسفة...
مستنداً على ايمانه بالمستقبل.
فلتحصد الأجيال القادمة... هـانئة... بما نزرعه توفية لدين أمنا الرؤوم...
مصـر.
لتنطلق انسانيتنا من كوامن ذاتها.
تهدى العالم... مرة... بعد مرات... قدرة المصرى العصرى... استقراء للاشعورنا العريق.
ووعيـاً بـدورنـا التـاريخى.

عندما تكتمل الدورة... وتسقط أوراق الخريف... بما تحمله من زيف...
وتتفتح أزاهير البراءة من جديد... وتفيض ينابيع التلقائية الصفصافة...
يصبح الصدق تلقائية...
ويصبح الخير تلقائية...
ويصبح الجمال تلقائية...
عندما ينفض المرء عن نفسه أردية التقليد... القديم والجديد...
عندما يستدير للشعارات... للنفاق الاجتماعى...
عندما يتنزه عن الغرض... ويلفظ الصنعة...
يعود فيلهو... حراً... صادقاً... بريئاً... وديعاً...
عندما يخلوالى نفسه... وحسّه... بعيداً عن الكوابح...
المنظورة والمستورة
عندما يدرك الانسان ذاته الصافية...
عندما تدركه القدرة على المقاومة...
عندما يستغنى...
عندما تتفوق الشجاعة على الخوف الغريزى من المستقبل...
عندما يتواصل الوعى... والقدرة... وا لحس... فى الحكمة...
عندما ينساب التعبير الحر...
عندها... يتزاوج العصر والوجدان...
فيكون الحب... والصوفية.

المحتويات

المقدمة	٣	الحركة ... الحدث ... الخبرة ... الحضارة	٤٤
الإهـداء	٥	ليس الإنسان أول متمرد على الطبيعة	٤٨
ما بعد نصف قرن من المحاولات المعمارية	٦	الإنسان ومصادر رغباته ... وفكره	٥٢
الأنـا ... والهو ... والـذات	٨	الحاجة إلى التقدير غريزة إنسانية	٥٥
بين الحس والفهم	٩	ثلاث إستجابات للرؤية البصرية	٥٨
غريزة العمران	١٠	قدر الفنان	٦١
تَمَلّكتني الرغبة	١٢	الفن وإستيعابه	٦٢
معاناة الإنسان	١٣	ضرورة الفن	٦٤
القريب من النفس	١٤	الفن والمنهج	٦٦
ثلاثة أقانيم	١٦	صفوة المجتمع والفن	٦٩
المطرقة والسندان	١٨	إنى أعترف	٧٢
العرق يمد لسابع جد	٢٠	المعماري تتجاذبه نفسه	٧٤
محاولة فى فهم نفسي	٢٣	قدرتي وتوفيقي	٧٥
الخواء والإمتلاء	٢٤	من الذى يصمم	٧٧
الإستقطاب العقلي	٢٦	عما أبحث	٧٩
الأخذ والعطاء	٣٠	رهبة الفن	٨١
حوار الذاتية والموضوعية	٣٣	ماذا أحاول أن أفعل	٨٢
حوار العقل والجسد	٣٤	مهنتي	٨٣
المستقبلية والإنسحاب إلى الداخل	٣٨	الفن والعمارة	٨٤
ليتني لم أولد شاردا	٤١	الوصايا المعمارية ... العشر	٨٦

اللعـب بالأشـكال ٨٧
قصـائد معمـاريـة ٩٢
الحبكة المعمارية هى الخروج من المأزق ٩٤
القصيدة هى المجاز ٩٦
هـذه رسالة إلى العالم العامل ٩٨
المعلقـات ٩٩
إبتهـالات معـمارية ١٠٠
قلبي ... والرؤى المعمـاريـة ١٠٢
العمـارة والمعمـاريـون ١٠٤
العمارة معزوفة من ثلاث آلات ١٠٨
وسـائط الإبـداع ١١٥
الفن المعماري نسيج فراغي ١١٦
التـواجـد - التقـديـر - الخلـود ١٢٠
أصالـة الفكـر المعمـاري ١٢١
نحـو طـراز ١٢٣
بين الـوجـود والعدم ١٢٦
عمـارة المجالات ١٢٨
الكفـايـة الانتـاجيـة ١٣٣
التصميم والكفاية الانتاجيـة ١٣٦
عـصـر التـنـوع ١٤٠
الكـون والنمطيـة ١٤١
مـن هـو المُصـمم ١٤٢
وحـدة القـالب العصري ١٤٦
نمطنـا الـرتيب ١٤٩
المحتويـات الحضـاريـة ١٥٠
العمـارة ... ذلك الحس العقـلاني ١٥٢
دور المصـمم ١٥٥
قـوة الإبـداع ١٥٦
السهـل الممتنـع ١٥٨
لمـن نبنـي ١٦١
تعيش الناس فى بلدنا ... على الشكوى ... ١٦٣
الكل يتعاطى عقار التقليد ١٦٥
الأصـل والنقـل ١٦٨
النـاس ... والعصـر ١٧١
لكـل عصـر تحـديـاتـه ١٧٤
سبـب الأسـبـاب ١٧٦
أيـة شجـاعـة ؟! ١٧٨
محـو الأميـة المعمـاريـة ١٨٠
نحـو بنـاء المصري العصري ١٨٥
فصـل الختـام ١٨٨

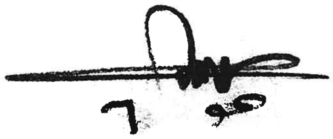

بين العصر والوجدان ... حوار عمراني

جمال بكري

الطبعة الاولى - ديسمبر ٢٠١١

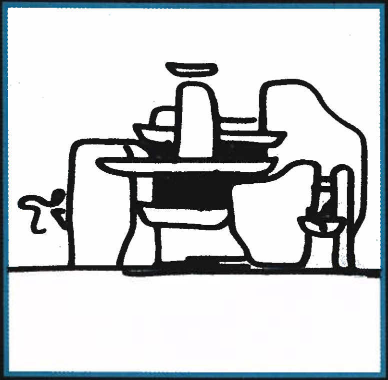

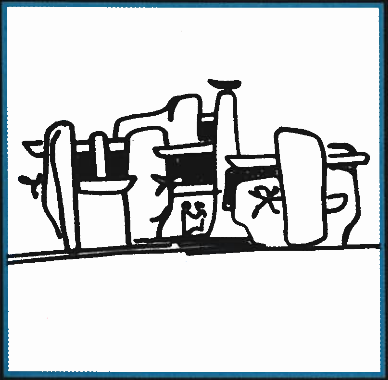

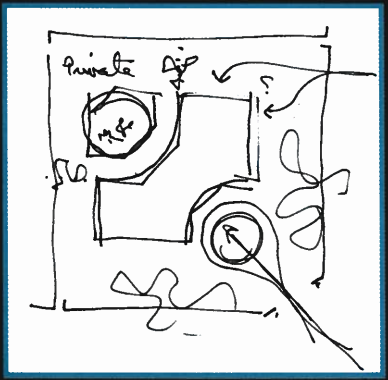

الوظيفة... المنشأ... المواد... الحرف الصناعية...

كلها وسائط... كالوسيط الروحى... الذى يصل طاقة الانسان الروحية بالكون... يسبح خياله بين أرجائه يغيب عنه الزمان والمكان وينعدم الوزن.

فيعيش اللحظة الخالدة... وكأنها الدهر... فيجسدها فى قصيدة... فى رمز...

ومن لم يعش هذه اللحظات... لم يقرض شعراً ولم ينتج فناً، ولم ينطلق خياله من عقال الوراثة والبيئة... ليخرج من منطق ضيّق الى رحاب أوسع.

إن مشكلة المبتكر... نفسه... مبتكراته... تحوم حوله كأشباح تتحول الى هواجس يقينية... تمنعه من الخروج عن حدودها.

لم يسلم مبدع من هذه المحنة... فقط مشوار أطول... ودوامات أبرح.

جمال بكرى